تراتيل الأدب والثقافة

حاتم سلامة

2024

تراتيل الأدب والثقافة

بقلم

حاتم إبراهيم سلامة

الناشر: الصومعة للنشر والتوزيع والترجمة

عنوان الكتاب: تراتيل الأدب والثقافة

تأليف: حاتم إبراهيم سلامة

تدقيق لغوي: دعاء الشاهد

تصميم غلاف: مريم توركان

رقم الإيداع 2024/19074

الترقيم الدولي / 9789778845174

الطبعة الأولى :2024

الصومعة للنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه صفحات أقدمها للقراء الأعزاء لتكون رواء لكل متعطش للثقافة وعاشق للمعرفة، وهي جملة من المقالات التي كتبتها في فترات متقاربة، وكانت ثمرة لقراءاتي الأدبية المتنوعة، التي يجد فيها القارئ متعة للنفس لأنها تمثل باقة من الأزهار المنتقاة، فكرت في جمعها وحفزني على ذلك ما رأيت من إقبال القراء عليها وتفاعلهم مع موضوعاتها، وحتى لا تضيع فيتبدد جهد هذا القلم الذي حرص دوما أن يسعد قراءه بكل جديد مفيد عبر موضوعات تثري عقولهم وتنعش أذواقهم، وترتقي بأفهامهم.

لقد كنت قديما شغوفًا بالقراءة من أجل القراءة، وما تُدره من متعة كبيرة في النفس، لكنني حينما صرت أكتب، وحينما رأيت الكتابة ضرورة في حياتي، صار للقراءة في نفسي تأثير أعمق واحتياج أشد، فأنا إذا لم أقرأ مات هذا القلم ولم يستطع أن يقدم شيئا يمتع القراء.. ومما يؤرق نفسي ما أراه من أهواء القراءة والمزاج المنحرف عند كثير من أبناء الجيل الذي لا يعرف ماذا يقرأ، وإذا قرأ فإنه يقرأ التافه والغث من الكتب التي لا تبني

فكرا ولا تلهم عقلا ولا تهدي نفسا ولا ترشد روحا.. ليس من الجميل أن تقرأ فقط، بل الجميل أن تقرأ ما يفيد ذاتك وينفع وجودك، ويزيدك ثقافة ومعرفة وتجربة.

بين القديم والحديث كانت هذه الجولات التي استلهمت عبرها هذه المعاني وتلك الأفكار، وقدمتها إليك أيها القارئ في ثوب جديد ومعنى مختلف وإشارة مغايرة.

وأحسب أنك بعون الله ستستفيد من هذا الجمع، فقد حام القلم حول هذه الغاية المنشودة وستجد كل مقالة تحمل رسالة تريد للعقل والفهم أن يدركاها ويقفا على مراميها، فالأدب الحقيقي هو الذي يحمل رسالة وينقل فكرة ويغير سلوكًا ويهدي إلى فضيلة ويدعو إلى قيمة، وبعون الله لن تجد في هذه المقالات شيئا مثيرا يخرج بك عن هذه الأهداف.. فقد نذرنا أقلامنا للحق، فهي تعيش به وله ومن أجله.

حاتم إبراهيم سلامة

الخميس 18-7-2024

سنجرج - منوف - منوفية

Salama227@gmail.com

لو كتب الشيطان كتابًا لقرأته ؟

في حوار لى مع صديق أحبه، عاب على أننى أستشهد أحيانًا ببعض الشخصيات التى لا تروقه أو يختلف معها فكريًا، أو طبعت بعض مواقفهم في خياله صورة سلبية، بددت معها كل قناعة برقيهم.

أجبته وقتها أننى ممن يقرؤون للجميع، حتى لمن يعارضون أفكاري ومعتقداتى، حتى لو كتب الشيطان كتابًا فيمكن لى أن أقرأه! بل يمكن لى كذلك أن أستشهد ببعض ما لديه من طرح يفيد الحياة والأحياء إن وجد ذلك.

قال لى: أدرك ذلك، لكننى أعيب عليك أنك تصل به إلى حد السماء، وقد فعل كذا وكذا مما هو مثبوت معلوم.

وصديقى على قدر كبير من الوعى والإدراك، الذي يؤهله لتدارك الأقلام وطبيعتها وهى تهيم في كل الأودية، وقد يكون لديه الحق في موقفه وكلامه وانطباعه، لكن البلاء العارم يقف على الجانب الآخر، حينما نرى ونبصر بعض القراء الذين يلاحقوننا معاتبين منكرين، لمجرد أن يراك أحدهم تستشهد بكلام كاتب يخالفه، فيسارع إلى فضحك وتجريسك والتشنيع عليك والثورة على قلمك ومكتوبك، وأنك تؤيد

آراء فلان، وتذكر كلام فلان، وتؤمن بعقيدة فلان.. وإذا ما ذكر اسمك أمامه في محفل أو جمع من الجموع، إلا وشنع عليك بأنك من المتعاطفين مع الكاتب المغضوب عليه.. وقد قابلت هذا وحدث لى واقعيًا، وكنت أتعجب من عقول أصحابه على القدر الذي كانوا يتعجبون منى فيه.

وأنا هنا بين يدي تجربة وحالة أجد في نفسى شوقًا كبيرًا إلى طرحها على القراء.. فقد يكتب كاتب ما يستحق اللعنة عليه، وقد يَمسَّكَ في أعز ما تملك، لكنك في نفس الوقت لا تحجم عن إنصافه والإشادة به إن تطلب الأمر حكمك عليه وقولك فيه.. وهنا نقول: هل معنى أنك لو مدحته في أسلوبه، أو أشدت بذوقه وحسن هندامه، أو نوهت بأنه مثلا يحب النظافة ودائم الابتسامة، فهل معنى هذا أننى مؤمن بمعتقداته اللعينة، متقول بآرائه السفيهة؟! أبدًا ابدًا.. فهذا شيء وذاك شيء آخر يجب الفصل بين الأمرين.

حينما كان الدكتور هيكل باشا في باريس أيام بعثته التعليمية، قرأ رواية النبى الأبيض (لهول كين) وهى رواية تتحدث عن مصر أيام الخديوي عباس الأول، وقد تألم هيكل من اتهام الكاتب للمصريين بالسذاجة العقلية والتعصب الدينى الفظيع، إذ تصورهم وكأنهم جميعاً مجاذيب ما إن يلمس الواحد منهم: (الله! الله!) أو ما إن ينعق بينهم صاحبه حتى يصيح قائلاً ناعق باسم الدين حتى يتبعوه إلى الصحراء المحرقة المهلكة، غير مبالين بشيء كذلك، وصم المؤلف كثيرا من علماء الدين بالضعف والنفاق ، وعزا إلى الخديوي الطموح لإقامة خلافة عربية إسلامية بمعاونة العلماء مقرها القاهرة، ثم لم يقف عند هذا الحد بل

عرَّض بالنبى نفسه عليه الصلاة والسلام ، وذلك كله في الوقت الذي لم يذكر فيه أي إنجليزي من الذين يعيشون في مصر إلا بالخير كل الخير. يقول مفكرنا الكبير دكتور (إبراهيم عوض) في كتابه عن هيكل وهو يعلق على هذه الحادثة: "وقد استفزت هيكل هذه الرواية فعلق عليها بغضب منبها إلى الفخ الذى وقع فيه كثير ممن قرأوا هذه الرواية من المصريين، إذ ظنوا أن المؤلف يمدحهم ومن ثَمّ سُرِّوا بكتابه سرورا." ولكن بعد هذا الغضب وبعد هذا السخط من كلام رجل مس الوطن والدين والنبى، فهل ترى أو تظن أن يكون بعد ذلك أي مدح أو ثناء في نفس أي مصري مسلم له؟!

وهنا يتجلى الفارق، ويثبت الإنصاف وجوده.. حينما دعى هيكل للحكم على أسلوب الكاتب ولغته ومن الناحية الفنية فماذا قال؟ هنا وعلى حد تعبير العلامة عوض: "لم يتأثر بهذا الغضب الذي أشعلته في نفسه الرواية بسبب تحيزها ضد قومه، فقد اعترف: بأن الكتاب متقن اللغة جدًا، ويشهد لصاحبه بالمقدرة العظيمة.. مقدرة هائلة ليس من السهل مسابقته فيها، وقلم بليغ عزيز الوجود يسحب الروح معه ويأخذ بمجامع النفس ويغرى المطلع على الاستمرار ولا يمل أبدا، كتاب بديع من أن يحلّى به الإنسان مكتبته.. الرجل إذن لديه القدرة على الفصل والتفريق بين الشكل والمضمون في العمل الفنى، ولا يدع فرصة للعنصر الأخير كى يؤثر في حكمه على الأول، وأعرف بعض النقاد أو القراء حينما يقرأ لمن يخالفه الرأي، فإن أول شيء ينتقده فيه أسلوبه وبيانه، فيرميه بكل نقيصة حتى لا يبرز فيه أي شيء ينسبه إلى الحُسن، لأن الحكم الفكري

يمحو أمامه أي فضيلة، وأولها فضيلة الإنصاف.. إن غضبة هيكل من بعض المصريين المحتفين بالرجل وروايته، كانت مسار عجب وفعلا حينما قرأت عن هول كين، رأيت حتى من كبراء المصريين من يسارعون في تقدير الرجل، للحد الذي يصل إلى البلاهة، فانظر مثلا إلى أمير الشعراء شوقى وكيف كتب قصيدتين في مدح الرجل فيقول:

"أيُّها الكاتبُ المصوِّرُ صوِّرْ* مصرَ بالمنظر الأنيق الخليق

إن مصراً روايةُ الدهر فاقرأ* عِبرةَ الدهر في الكتاب العتيق"

ويختم القصيدة الثانية وهى بعنوان "الربيع ووادي النيل"، بدعوة هول كين لكتابة تاريخ مصر:

"هول كين مصرُ روايةٌ لا تنتهى * منها يدُ الكُتاب والشُّراح

تلك الخلائقُ والدُّهورُ خِزانةٌ * فابعثْ خيالَكَ يأتِ بالمِفتاح"

ألا لعنة الله على خياله الحاقد المريض.

أدباء عاشقون

كثير ما يقع الأدباء في الحب، وناهيك لو كانت نفس هذا الأديب نفس فنان، يعشق الجمال ويتذوق مشاهد الحسن.. لوجدته كل يوم غارقا في حب امرأة جديدة، وقد يعده الناس خائنا لعوبا، وقد يصفونه أحيانا بـ -الدناوة- ولا يدركون أن نفوس بعض الأدباء هكذا تكون حينما يرتئيهم الجمال أو يطل عليهم بدوره.

قالت لي يوما تلك المرأة الحكيمة: "إن هذا طبع فيكم معشر الأدباء، فيمكن لهذا الأديب أن يهيم قلبه كل يوم بامرأة جديدة، ويحب امرأة جديدة، وقد يظلمه الناس، حينما ينعتونه بأنه زير نساء لا يعرف معنى الوفاء؛ ولكنه هو هكذا طبعه، مجبول أن يكون بهذه العاطفة المتوهجة، أو المتشعبة والحاضنة التى تسع كثيرا من النساء".

كان معنى عجيبا حقا، عرفتنى به تلك الحكيمة، كيف أدركَتهُ، وكيف استلهَمَتهُ، خاصة وأنها امرأة، ليس لها عمق بطبيعة الرجال؟! لكن قولها لا شك أعاد إلى ذاكرتي تلك المقولة التى قالها دنجوان الصحافة قديما محمد التابعى، وكنت أستنكر ما قال، وأتهمه فيما صرح وكشف من مخبوء ذاته وطبيعة جنانه.

لقد قال: "جاء على وقت وكنت على استعداد أن أعشق أربعين امرأة في وقت واحد".. مقولة قد لا تستنكر المرأة شيئا من حياتها كما تستنكرها، وترفضها، وتعلن عليها سخطها وتذمرها، لكنها حقيقة في طبائع كثير من الرجال، يجب أن تعترف بها المرأة دون غضب أو صخب، أو ذم أو قدح.

قد يتملكك العشق كثيرا، ويعصف بك حب المرأة الجميلة الفتانة، ليسلمك إلى داء عضال، ومرض فتاك، تضيع معه أحلام عقلك، ومنابت رشدك، لتظل أسيرا لصورة المرأة التى أذهلتك وملكتك، إن هذا الحب لا يشبه بشيء من معارف الدنيا ومعالمها، إلا بالسحر، نعم هو نوع من السحر والبلاء، إن أصيب به الإنسان، سهر الليل وجافاه المنام.

ولعله صورة من عبودية الإنسان للإنسان.. واستعباد عنصر لعنصر، وأكثر النساء، يسعدن وينتشين، حينما تجد إحداهن من يحبها، ولا تدرك عمق ما يحيا به هذا العاشق الولهان من آلام انتابته جراء جمالها ودلالها.. إنها سعيدة مسرورة غير عابئة بمحنته، ولعل هذا الموطن من أكثر المواطن التى تفقد المرأة فيها مشاعرها وإحساسها وإنسانيتها، فلا يهمها أن يكون هناك قلب يحترق، فليحترق أو حتى يتفحم، فالمهم أنها أسرته، واستعبدته، وجعلته تحت أقدامها.. ليتحول هذا الجمال إلى نوع من الثقة أو صورة ممجوجة من صور الغرور.

أدرك سلفنا العظيم خطورة هذا الداء الوبيل داء العشق، وعرفوا كيف يتعاملون معه، وكيف يداوون بلاءه، حتى يبرأ منه الإنسان

ويشفى منه فؤاده.. وأنا واحد من الناس كأي أحد، قد صليت به في مراحل من حياتي، فلما تداويت بعلاجات السلف الصالح، خرجت سالما والحمد لله، دون الولوغ في غيبوبة هذا العشق وسكره.

وحتى إننى اليوم، أرى تلك التى سيطرت على عقلى يوما، وليس لها عليه اليوم أي سبيل أو غاية أو قوة او سحر أو سلطان.. فأتعجب وأقول: كيف سمح عقلى لنفسه أن يكون ذليلا لهذه المرأة يوما ما؟ ما الذي أدهشه فيها وأشعل مرابض ولعه بها، قد تكون جميلة، لكن جمالها لا يصل إلى حد هذا السحر الذي يضنى العقول ويذهب الأحلام، ويأسر العقل ويشعل اللهفة.!

نعم تدور هذه المحادثة بينى وبين عقلى، حتى أدركت يوما أن هذا الحب العاصف، وهم كبير، وموجة من الإعجاب جارفة، تحتاج منا فقط بعض المجاهدة، حتى تمر محنتها وتنطفئ قوتها، لننعم بعدها بالحرية العظيمة، التى كان يمكن أن تستبدل بالعبودية لامرأة.. نعم بعض المجاهدة، والتدريب على الهجر، والانشغال بالطاعة، مصحوبًا ذلك كله بالدعاء والمناجاة، فلا تلبث إلا أيامًا قليلة بعون الله ثم تزول، وتخرج من المحنة بطلا جسورا، لا تهدي عقلك وقلبك وحبك وعشقك إلا لربك، ولا تستطيع امرأة مهما تربعت على عروش الحسن والجمال، أن تحرك فيك شعرة واحدة، أو تمس قلبك بخاطر يغويه.

أما تركك لسبل العلاج، واستسلامك لهذا الشعور، وتماديك في نداءات العشق فهو ما يجعلك عبدا ذليلا؟ فتبيت وتصحى هائما في خيال امرأة، وصورة امرأة، وظلال امرأة، وتظل صورتها أمامك شاخصة في خيالك نوما ويقظة ذهابا وإيابا حلا وترحالا، قعودا ووقوفا؟ فهذا مالا يحمد عقباه ولا يليق بالأسوياء، ولا يقبله ذوو العزائم، ويؤدي لنتائج فادحة عبر عنها الشاعر الحكيم بقوله:

تعلق بالعشق حتى عشق * فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة * فلما توغل فيها غرق

جرب وجاهد وقاوم لتسترح.

قد ترى امرأة جميلة وتستحسن صورتها وهيأتها وتعجبك منها روحها وأناقتها، وتصرح لها أحيانا بذلك وتبديه، وهو نوع من الإعجاب بهذا الجمال ليس أكثر.. لكنك لو شعرت بانتقال نفسك من حالة الإعجاب إلى حالة المرض، فشمر عن ساعدك وابدأ في العلاج وانتصر لحريتك، فليس هناك أغلى من حريتك.. على كل من أصابه هذا البلاء أن يراجع كتاب الداء والدواء لابن القيم، فبه إفادة عظيمة وهداية قويمة لكل حائر مصاب، أضناه العذاب.

التراث الضائع

لا يفوت المسلم اللبيب وهو يقرأ عن وحشية التتار وما فعله بأرواح المسلمين وعشقهم لسفك الدماء، لا يفوته وهو يتألم من هذه الوحشية في هدر الإنسان، أن يتألم من وحشيتهم في هدر الكتب.

فما فعلوه في مكتبة بغداد كان أمرًا مريعًا يهتز له وجدان الزمان، وتئن له ذكريات التاريخ.

"لقد أكل الحقد قلوبهم على كل ما هو حضاري في بلاد المسلمين.. لقد شعر التتار بالفجوة الحضارية الهائلة بينهم وبين المسلمين؛ فالمسلمون لهم تاريخ طويل في العلوم والدراسة والأخلاق، عشرات الآلاف من العلماء الأجلاء في كافة فروع العلم، الديني منها والدنيوي.. لقد أثرى هؤلاء العلماء الحضارة الإسلامية بملايين المصنفات، بينما التتار لا حضارة ولا أصل لهم.. إنهم أمة لقيطة.. نشأت في صحراء شمال الصين، واعتمدت على شريعة الغاب في نشأتها.. لقد قاتلت هذه الأمة كما تقاتل الحيوانات.. بل عاشت كما تعيش الحيوانات.. ولم ترغب مطلقا في إعمار الأرض أو إصلاح الدنيا.. لقد عاشوا حياتهم فقط للتخريب والتدمير والإبادة.. شتان بين هذه الأمة وبين أمة الإسلام، بل شتان بين أي أمة من أمم الأرض وأمة الإسلام.. وهذا الانهيار الذي رأيناه في تاريخ بغداد من المستحيل أن يمحو التاريخ العظيم لهذه الأمة العظيمة"

وكانت مكتبة بغداد تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام.. جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون، من علوم شرعية كتفسير القرآن والحديث والفقه والعقيدة والأخلاق، ومن علوم حياتية كالطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وعلوم الأرض، ومن علوم إنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة وغير ذلك.. هذا كله بالإضافة إلى ملايين الأبيات من الشعر، وعشرات الآلاف من القصص والنثر.. فإن أضفت إلى كل ما سبق الترجمات المختلفة لكل العلوم، الأجنبية سواء اليونانية أو الفارسية أو الهندية أو غير ذلك علمت أنك تتحدث عن معجزة حقيقية من معجزات ذلك الزمان.. لقد كانت مكتبة عظيمة بكل المقاييس.. ولم يقترب منها في العظمة إلا مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس.. وسبحان الله! لقد مرت مكتبة قرطبة بنفس التجربة التى مرت بها مكتبة بغداد.

وعندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة 636 هـ (قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط!) قاموا بحرق مكتبة قرطبة تمامًا.. وقام بذلك أحد قساوسة النصارى بنفسه.. وكان اسمه **"كمبيس"**، وحرق كل ما وقعت عليه يده من كتب بذلت فيها آلاف الأعمار وآلاف الأوقات، وأنفق في سبيل كتابتها الكثير من المال والعرق والجهد".

وهذا ما جنته يد الأعداء الحاقدين، ولكن ما بالك لو كان الضياع والإهمال سمة الأمة ذاتها، وفعل أبنائها فى تراثها، يوم أن يهملوه فلا يقرؤونه، أو يتناسونه ليضيع منهم!

وقد كنت أقف كثيرًا أمام تلك المقولة التى نقلت عن الإمام الشافعى - رحمه الله - في الليث بن سعد حينما قال فيه: "رحمه الله كان أفقه من مالك، ولكن قومه ضيعوا مذهبه" لقد ضيعوه ولم يحفظوه بالكتابة والنقل والتدوين، ولكن المصريين مع شهادة التاريخ لهم بالإهمال، استطاعوا مع الزمن وفيمن قال فيهم هذه العبارة أن يجبوا ذلك الشين، حينما تلقوا الشافعى نفسه واحتضنوه في ديارهم، ونقلوا ودونوا علمه وفقهه وتراثه.. إن الأمة التى تهمل تراثها وتتركه يضيع، إنما تهمل حاضرها ومستقبلها قبل أن تهمل ماضيها، وكم أحزن لكثير من العلماء العظام، الذين ضاع أثرهم وأهملت كتبهم وجرفها النسيان وأهملت ثم بليت وانتهت.

وأمتنا كانت حريصة دؤوبة منذ مئات السنين، وفي تاريخ حضارتها الخالد، على نقل العلم وإنشاء المكتبات ونسخ الكتب؛ لكن بعض العصور التى علي فيها عنصر الإهمال، قد غشيتها وسيطرت عليها حتى تبدد فيها كثير من التراث، وضاعت أعداد مذكورة من الكتب، كما كانت هناك أحداث جسام خارجة عنها، كما حدث فيما ذكرناه إعصار التتار واجتياحهم لبغداد، ورميهم بالكتب في نهر دجلة حتى اسودت ماؤه، وهى جريمة عالمية بكل المقاييس، لأن التراث الذي أذيب لم يكن خسارة للمسلمين وحدهم، وإنما للعالم والحضارة الإنسانية كلها.. وكم دهشت وأنا أقرأ عن كتاب من أهم وأعظم الكتب التراثية في الإسلام، وأنه تاه وضاع ولم يعثر له على أثر، وكثر حوله الباحثون، حتى اضطر

بعضهم لفقده أن يرثيه ويئن لضياعه، وأخذ البعض الآخر يجمع أقاويله ونتفه التى ذكرت في كتب متفرقة، ويجمعها بأنها أجزاء من هذا الكتاب الضائع والتراث المفقود ويتناولها بالتحليل والتدقيق.

(أضاعوني وأي فتى أضاعوا)

ظل هذا الكتاب معروفًا ملموسًا منذ أن ألفه صاحبه، حتى جاءت القرون الأخيرة، ومرت فترة قاسية عصيبة على العالم الإسلامى، ومعاناته من الاستعمار الأوروبي، وبدأ هذا الكتاب العظيم يغيب عن الأنظار، وتفتقده الأيدي، وتخلوا منه المكتبات، واتفقت الدنيا كلها أنه صار من التراث المفقود الذي يُبكى عليه، حتى كانت المفاجأة المذهلة، حيث اكتشفت ثلاث نسخ من هذا الكتاب القيم العظيم، نجت من الضياع والبلى والدمار والإتلاف وعوادي الزمن، فكانت النسخة الأولى عند أمراء نجد من آل الرشيد، والثانية في دار الكتب المصرية، والثالثة في دار الكتب الحمدية بحلب، وأسرعت مطابع آل الحلبى في مصر لطبعه وإظهاره للنور، بعد زمن كبير من الاندثار والضياع والفقد، وكان لظهوره دويًا عظيمًا وفتحًا كبيرًا على المسلمين، بعد وفاة صاحبه منذ أكثر من ألف عام.. وهذا الكتاب هو تفسير الطبري المسمى بـ **(جامع البيان في تأويل القرآن)**. وللكتاب مكانة كبيرة في تاريخ وحياة المسلمين، وقد نال السبق والأستاذية في فنه، حتى أشاد به كبار علماء الدين، وعد صاحبه أبا التفسير، كما عد من قبل أبا التاريخ.

قال عنه **السيوطى**: "أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله".

وقال شيخ الإسلام **ابن تيمية**: "هو أبلغ التفاسير وأصحها وأعظمها قدرًا فليس فيه بدعة ولا ينقل عن المتهمين" وناهيك عن أن يشهد ابن تيمية لكتاب بالسبق في التفسير، وهو الذي كان آية في التفسير.

وقال **أبو عمر الزاهد**: قابلت هذا الكتاب من أوله إلى آخره، فما وجدت فيه حرفًا خطأً في نحو أو لغة.

ويقول الدكتور **الذهبى**: "يعتبر الطبري من أقوم التفاسير وأشهرها وهو المرجع الأول عند المفسرين".

وكنت قديما أقرأ في كتاب **(ثقافة الداعية)** للدكتور القرضاوي، فإذا به يقر ما أقره السلف والخلف، من أن الطبري أفضل التفاسير، وهذه الأفضلية تعود لتمكنه وتناوله للتاريخ واللغة والأحكام والأسانيد فهو كتاب مفيد متنوع.

الذين حرقوا المعرفة

نأسى ونحزن ونتندر بما ضاع من الكتب العربية والتراث الإسلامى على يد التتار الذين رموا بالمكتبة العربية في نهر دجلة حتى تغير لونه.. وتظل هذه الحادثة أوحدية في تاريخ المسلمين وهم يعزون أنفسهم بمصابهم الثقافي والحضاري الكبير.

والحق أن تاريخ المسلمين كان فيه أبشع من صنيع المغول بمكتبة بغداد.. فكلنا يعرف ما بلغته الحضارة والوجود الإسلامى في الأندلس من الرقى والتقدم والازدهار المعرفي.. ولا أعرف لماذا تغطى جريمة التتار على جريمة النصارى الأسبان مع أنها كانت أبشع وأقبح وأشد نكاية فقدا وخسرانًا للبشرية والوجود الإنساني كله.

يحلو للبعض أن يسميهم بالأندلسيين، لكننى أصر على تسميتهم بالنصارى الأسبان، للتذكر دائما بأن من فعل هذه الجرائم التى يندى لها جبين البشرية والإنسانية نصارى غير مسلمين.

منذ أيام كنت أقرأ في كتاب **في ميزان الإسلام** للعلامة الراحل محمد رجب البيومى، وقد ذكر في معرض دفاعه عن نسبة حريق الإسكندرية لسيدنا عمر بن الخطاب فقال: "لماذا لم يبك هؤلاء المغرضون على التراث الإنساني الرائع الذي أحرقه الأسبان حين استولوا على

الأندلس، وقد سجل التاريخ أن عشرات المكاتب قد أحرقت عمدًا في غرناطة ومدريد وقرطبة وأشبيلية، وكانت هذه الكتب خيرة ما وجد في أوربا دون استثناء! وماذا تكون مكتبة الإسكندرية -على نفاستها الزمنية- إذا قيست بما وجد في الأندلس من مكتبات!"

نعم فبعد سقوط الأندلس أمرت السلطات الإسبانية الجديدة - عبر التهديد والوعيد ومحاكم التفتيش - السكان المسلمين بتسليم ما لديهم من الكتب والمخطوطات، وأن عملية جمع الكتب استمرت سبع سنوات، وبعد ذلك أُحرقت الكتب والمخطوطات التى تم جمعها في غرناطة في منطقة باب الرملة، وقَدر كثير من الدارسين الغربيين ما تمّ إحراقه ذلك اليوم بمليون مخطوطة. ذكر ذلك المؤرخ الدكتور عبد الرحمن الحجى.

ولكننا الآن وبعد كلام الحجى والبيومى نسوق اعترافات الغربيين أنفسهم ممن جسدوا ووصفوا هول المهزلة الحضارية.

الباحث والكاتب الغربي ريتشارد أوفندن -مدير مكتبات البودليان الشهيرة في أكسفورد والمسؤول الـ 25 الذي يشغل المنصب التنفيذي الأول في مكتبة جامعة أكسفورد منذ عام 1987م- كان له مؤلف ثمين سجل فيه هذه الجرائم البشعة للنصارى الإسبان ضد العلم والمعرفة وسمى هذا الكتاب (إحراق الكتب: تاريخ الهجوم على المعرفة) - الصادر حديثا بنسخته العربية عن الدار العربية للعلوم ناشرون - حيث يروي فيه أنه كان هناك أكثر من سبعين مكتبة في إسبانيا الإسلامية، ولم

يعرف العالم أمة أحرقت كتب غيرها من الأمم أكثر من إسبانيا.. وأبدت المستعربة الإسبانية الدكتورة كارمن رويث برافو تحسرها على فقدان تلك المعرفة، وتقول إن ذلك "أثّر في ذاكرتنا وتجربتنا الجماعية تأثيرَ المأساة والفقدان".

وتضيف "تمّ إحراق كتب عربية في غرناطة من قِبل الضباط في الجيش المنتصر على المملكة الأندلسية في 1492م، وما يزيد على خطورة العملية ومأساويتها أنها تمت بعد توقيع اتفاقية وعدت باحترام حقوق الغرناطيين الدينية والثقافية".

وتابعت "نعرف أنَّ كثير من الكتب النفيسة النادرة العربية الأندلسية أُرسلت إلى الخارج وبيعت، كما بقى بعضها في المكتبات المؤسساتية الرسمية، كمستشفى غرناطة الملكى، أو فى مكتبات خاصة لأشخاص ذوي مكانة وقوة وثقافة نهضوية"،وبينت **كارمن برافو** في –تصريحها للجزيرة نت– أنه "مع مرور الزمن تبنّى حكام إسبانيا نمطا من الثقافة السلطوية ازداد استبدادا ومبالغة في الوحدوية، إلى حد أنهم منعوا استعمال اللغة العربية، كما منعوا امتلاك الكتب أو المخطوطات المكتوبة بها.. وبقيت الثقافة الإسبانية على هذه الحالة إلى بداية القرن الـ 18".

وبدوره، يؤكد المستعرب **فيراندو فروتوس** –للجزيرة نت– أنه من المعروف أن الكاردينال سيسنيروس الإسبانى –وهو أمين سر الملكة إيزابيلا– أمر في عام 1500م بإحراق ما يزيد على 4 آلاف مخطوطة عربية ذات طبيعة دينية وتاريخية وشعرية محفوظة فى غرناطة، ولم يستثن منها سوى ما يتعلق بعلوم الطب.

ويتابع "رغم كل ما حدث في تلك الحقبة من الزمان -من الاعتداء على المسلمين وعلى لغتهم وعلى ثقافتهم- فإن الثقافة الإسبانية اقترضت من الثقافة العربية عناصر وجوانب مهمة".

وأريد أن أسجل من هنا أن الغرب الذي يتهمنا اليوم بأننا أعداء الحضارة، إذا نظر إلى تاريخه وتجنيه على مصادر المعرفة لعرف وأدرك أنه العدو الحقيقى للحضارة الزاهية، وأن هذه الأمة التى يتجنى على تاريخها بالتشويه، كان تاريخها لامعا مدهشا قدم الكثير والكثير للإنسانية، ولكنهم قابلوه بالجرائم التى يتناسونها اليوم.

احذروا أبناءكم الجهلة

نصيحة مني أقدمها لك: إذا كنت عالما أو أديبا أو فقيها، فاعمل جاهدا أن تنشر تراثك وكتبك بيديك قبل أن تعاجلك المنية، ولتعلم أن من خلفتهم من أبناء لا يلوون على تراثك في شيء، وأنهم في كثير من الحالات من أشد أعداء هذا التراث وخصومه وأسرع الناس فتكا به وإهمالا له سواء كان مكتبة خلفتها أو تراثا فكريا سطرته بيديك ويحتاج إلى من يوالي نشره بعد موتك.

وإني لأضحك من حرص البعض على تأليف رواية أو عمل كتاب وأول أهدافه أن يقيم معنى تربويا في روع أبنائه ليمنحهم الفخر والسعادة حينما يرون أن أباهم ألف كتابا، يخيل إليه أنه يعلم أبناءه أنه عظيم، أو أنهم آمنوا أنه عظيم، وحينما يرحل عن الدنيا يكون أول ما يمزقونه هو هيكل هذه العظمة التى صدعهم بها طوال حياته.

الأبناء الروحيون أو التلاميذ الذين يرتبط بهم الكاتب أو المفكر أو العالم أثبتوا في كثير من المواقف أنهم أشد برا بالعالم والأديب من أبنائه الحقيقيين، حين يعملون على نشر تراثه وإحيائه من جديد.

علمت من صديق أن ابن عالم من العلماء الكبار أوقف إخراج تفسير للقرآن ألفه والده، لأنه يعتقد أن هذا التفسير سيدر الملايين إن

طبع، بينما لا يتحرك إلى طبعه وإخراجه وينتظر التاجر الذي يعرض عليه أكبر سعر حتى يعطيه الكتاب ويغنى من ورائه، وهذا الجاهل سيظل على هذه الحال الغبية ولن يأتيه أحد وسوف تنتهى حياته ويموت ويضيع من بعده تراث والده الذي قدمه خدمة للإسلام.

منذ فترة أوشكت أن أنشر كتابا لأحد العلماء على الإنترنت مجانا حتى يستفيد القراء، فأوشكت إحدى بناته أن تقاضينى وسارعت لتعرف الموقف القانوني لولا لطف الله بي، وقد أخبرني الصديق معالي المستشار بهاء المري أن هذه السيدة لو رفعت عليك قضية كان من الممكن أن تقضى عليك بغرامة تصل إلى 800.000 جنيه، كل هذا لأن المطبعة التى تطبع كتب والدها ورقيا تقتسم معها أجر المبيعات.

قرأت في سيرة المؤرخ الراحل محمد عبد الله عنان قوله: "وإذا كنت آسف على شيء في حياتي العائلية، فهوأننى لم أرزق من يمكن من أولادى أن يخلفنى في حياتي الأدبية، ويرعى تراثى التاريخى العريض، ويستمرفي نشر كتبى التاريخية والأدبية المختلفة، لكى تنتفع بها الأجيال اللاحقة، ولكننى تركت هذا التراث وديعة بين يدى الله –سبحانه- يرعاها ويحفظها وهو خير الحافظين"

ولأجل القيمة العظيمة لكتبه - رحمه الله - قيض الله لمن بعده أن يعرف قيمتها ويوالي العناية بها، لكن هناك من العلماء من ضاع كثير من تراثهم، وكان أول الأسباب أنهم لم يخلفوا وراءهم من يعرف قيمة ما يكتبون ويسطرون.

وهناك من لا يعبأون بعناية أبنائهم لأنهم تركوا الإلحاد في كتبهم حارسا لبقائها، فإلى اليوم مازالت تطبع كتبا لبعض الأدباء تتفجر كفرا وفجورا وقد فنى أبناؤهم، فلم يتركوا وصية لمن بعدهم أن يعتنى بتراثهم، لأنهم وجدوا الشيطان يرعاها وينميها، وكان لهم خير وريث وخير معين.

ومن ثم كانت هذه النصيحة لك أن تكون أول المعتنين بتراثك وكتبك وسطورك، حتى لا يأتي وراءك ولد جاهل فيرمى بتراثك في القمامة، أو يحبسه عن الناس رجاء الإتجار به.. وإذا كنت في هذا المقام أبرز الصورة السلبية لأبناء العلماء، فإننى أشيد بأبناء بعض العلماء الذين يحرصون على نشر تراث آبائهم وإحياء ذكراهم ومد أثرهم وتجديد كتبهم باريين بهم وخدمة للعلم والفكر والأدب.

احترموا تخصصكم

أنا واحد من هؤلاء الذين يوصفون بأنهم ذوو مواهب متعددة، ففى مطلع حياتي وإلى الآن وبالوراثة، ظهرت في يدي موهبة الرسم والخط، ولما كبرت أكثر، توجهت للخطابة والإلقاء، ثم احترفت القراءة، وتدرجت بعدها لهواية الكتابة، وأنتجت فيها بقدري المستطاع، كما توجد لدي مواهب كثيرة في الحِرف والأعمال التى أمارسها بنفسى، وأشعر أنها جميعا تنبع من ذهن وقاد، وعقل منمق، ونباهة في الذوق والتمييز، فيمكن أن تجدني نجارًا أو سباكًا أو حلاقًا أو فلاحًا أو بناء، وهى وجهات أجيد فيها كل الخطوات الأولى التى تؤهل لشىء من الإتقان لو أننى تفرغت لها.

وهذا الطرح لم أخطه لكم لأمدح نفسى بنفسى، أو أختال زهوًا بين من يقرؤون سطوري، وإنما أردته مقدمة لشىء مهم أريد الحديث عنه وطرحه بين يدي القراء الكرام، ألا وهو (التركيز) وأهميته وضرورته، ليس لك وحدك، وإنما أثره ونفعه على المجتمع كله، يقولون في المثل العامى :(صاحب بالين كذاب).

وهى الجملة التى تجسد تحديدًا ما أريد قوله والتنويه عليه، فإن صاحب الحرفة والمهنة والموهبة، لو أنه ترك نفسه وروحه تتقسم أو تتشعب بين كل تلك الأعمال والرغبات، فلن يصل إلى شيء فيها من

القمة والحذق والإتقان، وإنما سيصير كذلك الداعية أو الصحفي الذي نقول له في دورات التدريب: يجب أن تُلم من كل علم بقدر يسير، حتى تستطيع أن تتعامل مع الطوارئ والمستجدات، وتخاطب كل الناس على اختلاف عقولهم ووظائفهم.. لكنه مع هذا.. لا يكون أبدًا هو المرجع المقصود في علم من العلوم، وعليه وإليه تشد الرحال، ومن فمه يطلب الطالبون بغيتهم في تعلمه.. وكل إنسان موهوب يسير بهذا المنهج الشمولي، فإنه يخسر كثيرًا في النهاية، لأن جهده تبدد وتوزع بين الحرف والهوايات، وفاته أن التركيز والتخصص قيمة عظيمة تمنحه التميز والنبوغ.

لقد كان العقاد أديبًا، وشاعرًا، لكنه أفرد حياته للأدب والفكر، وكذلك كان الرافعي آية الله في البيان، لم يكن روائيًا، ولم يوغل في الشعر رغم براعته، وكان شوقي أديبًا وصاحب بيان نال به رتبه أمير الشعراء، فقد تخصص في الشعر، ولم يتخصص في فنون الأدب الأخرى، حتى وإن كان من الأدباء والمفكرين من ضرب في كل زاوية بسهم، فإنك لا شك تجده قد تحامل بثقله على فن معين، فهو يهواه وإليه يميل أكثر.. لقد كنت تجد العالم قديمًا وقد صفوا تحت اسمه عددًا من الألقاب والوظائف، فهو المؤرخ الفقيه المفسر المحدث النحوي، ورأيي أن هؤلاء الناس قد بارك الله في أعمارهم وأعمالهم، وقضى على قدرهم بالعلم وفروعه، حينما قضوا حياتهم له، ووهبوه أرواحهم وأنفسهم، وهجروا في سبيله أوطانهم وأهليهم.. كذلك يمكن للموهوب الخارق أن يتمكن في علمين، ولو أنه تمكن من ثلاثة، فإنه حالة فريدة من العقل الألمعي، لكنني لا أعتقد أن

يوجد هناك من يتنوع في مشارب العلم الكثيرة، لن يمنعه عنها عقال عقله وحدوده، ولكن يمنعه عنها رغبته وهواه في إجادة ما بين يديه من العلوم المحدودة، وهنا كانت دعوتنا للتخصص، بمثابة دعوة للنبوغ والإتقان.

كان يعجبنى كثيرًا نجيب محفوظ، فرغم تخصصه في الفلسفة، وعشقه للتاريخ، سخر حياته وجهده الأكبر لمشوقه وغرامه وهو الأدب الروائى، فلم يكتب في الفكر، ولم يؤلف في التاريخ والفلسفة، ورحم الله شيخنا الدكتور محمود عمارة، فقد كان رغم علمه الكبير المنداح، وقدرته على الحديث في فنون العلم الشرعى، إلا أنه دائمًا ما كان يعلن أنه داعية وأنه متخصص في الدعوة، فلم يحدث ولم يُفت ولم يفسر، وإنما كان يطوف على كل هذه العلوم، حتى يفيد تخصصه في الدعوة إلى الله تعالى.

أحيانًا أجد بعض الأطباء والمهندسين، مولعين بالفنون الأدبية أو الدينية، فمنهم شاعر ومنهم كاتب ومنهم مفكر ومنهم محدث ومنهم داعية، لكننا نريد أن نسألهم: لماذا لم يتفوقوا في ميدان تخصصهم، ويحوزوا فيه قصب السبق؟ وهذا الخاطر هو ما كان يؤلم شيخنا محمد الغزالى – رحمه الله – حينما كان يندد بأصحاب المهن العلمية، ويصرخ فيهم بأنهم سيكونون أشد نفعًا لأمتهم ودينهم، لو أنهم منحوا تخصصاتهم كل عنايتهم.. ومنهم من جذبته موهبته عن طريق تخصصه الذي نذر نفسه إليه، ليكون فيه عمله ومستقبله، لقد كان نداء الموهبة أشد وأقوى، فاجتذبهم وأجبرهم أن يهجروا مهنهم، ويعدلوا مسار تخصصهم

وعنايتهم، حتى تفوقوا وتميزوا، وضرب لنا بعض أصدقائنا مثالا بالطبيبين إبراهيم ناجى، ونبيل فاروق، أحدهما الشاعر الكبير، والثاني رائد الكتابة في عالم الفانتازيا.

الجرأة على النقد

حينما مارست الخطابة والتدريس بقريتى في سن مبكرة، اصطدمت بعقول العوام الذين أسرتهم آراء الشيوخ القدامى ممن نهلوا من معين الحواشى الصفراء العتيقة، التى لم تخضع لعمليات التحقيق والتدقيق التى اتسم بها العصر الحاضر، فمحصت الصحيح من الضعيف، والغث من السمين، من الأقوال والأحاديث والفتاوى والآراء، فكان قولي لديهم منكرًا، وأفكاري لعقولهم وأفهامهم صادمة جافية، ومنهم من قابلنى بهزء وسخرية وإعراض واستنكار، وكانت حجته في ذلك: أين أنت من الشيخ فلان وفلان؟!

لقد رفضوا هذه الآراء، ولم يعدوها اجتراءً على الفقه والدين، وإنما اجتراء في المقام الأول على الشيوخ الذين تربوا على أيديهم منذ زمان فات، ولهم في أنفسهم حظوة ومكانة، ولم يكن الفرق بينى وبين شيوخهم، إلا أننى من زمن متقدم قرأت في الكتب المحققة تحقيقًا علميًا، فكشفت الصدق من الكذب، واليقين من الخداع، أما الشيوخ السالفين، فقدموا للناس ما في الكتب الصفراء التى لم يطبع على غلافها إلا أسماء مؤلفيها فقط، دون أسماء المحققين والمعلقين المدققين، فقدموها للناس بعجرها وبجرها، وجدها وهزلها، وصحيحها وسقيمها.

إن الاجتراء على نقد السالفين محرم في أعراف العقول التى جُبلت على تقديس القديم، وعلتهم في هذا قول القائل: من كان متأسيًا فليتأس بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، وغاب عنهم قول مالك -رحمه الله-: كل يؤخذ من قوله ويرد، إلا صاحب هذا القبر وأشار إلى قبره -صلى الله عليه وسلم-، وقد يواجهك أحدهم ليبطل قولك، ويشوه فكرك، ويعبئ الناس ضدك، ويمنيك بالهزيمة، لا بحجة ولا منطق ولا علم ولا بيان، وإنما بقولة واحدة وهى: لم نسمع بهذا ممن سلف، وهل أنت أعلم من فلان وفلان؟! وبهذا لا تستطيع الجواب أمام هذه الحجة الجاهلة، التى لا تعترف بالعلم، ولكن بالأشخاص، وقد غاب عنهم قول سيدنا على -رضى الله عنه-: اعرفوا الرجال بالحق، ولا تعرفوا الحق بالرجال.

يُعجبنى العقل المفكر الملهم الذي يخضع للعلم وحده، وللفكر وحده، ولا يقدس أو يتعصب إلى أقوال العلماء والمفكرين، ويعتقد أن أقوالهم من مكملات الوحى والدين، ولا يدرك أن من قال بهذا الكلام وغيره، يمكن له أن يكون خطأ أوغير منصف، ولكن الناس يرهبون مبادرة التفكير والاعتراض على المعهود، لمجرد أنه من القدماء الذين ألبسوهم أثواب القداسة.

كنت أقرأ في كتاب الإحياء أن الإمام أحمد بن حنبل رأى الله -تعالى- في المنام فقال: (يارب ما أفضل ما يتقرب به إليك المتقربون فقال: كلامى يا أحمد قال قلت: بفهم أم بغير فهم فقال: بفهم وبغير فهم) والحق أن مثل هذا الكلام يخالف دعوى القرآن التي أكدت فضل القراءة بالتدبر

والتفكر، وإلا كان القارئ للقرآن لا يفقه ما بين يديه، أو الطائع الذي منى قلبه بالغفلة، فلم تكن عبادته إلا مجرد طقوس وحركات لا تغنى بشيء، حتى ولو كان فيها مشقة وعناء، أو كمن يصوم رمضان ولا يأتي بما يوافق شرف الصوم من خلق واستقامة.. وبعضهم يسوق أدلة تؤيد ذلك، بحجة أن النظر في المصحف عبادة، لكن التعامل مع رؤيا أحمد، قد تسوق بعض الأفهام، لعدم الاكتراث بالتدبر، فتكون مخالفة للغرض القرآني، كما أن دين الله لا يبنى إلا على الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، ولا يبنى على رؤى العلماء وأحلامهم.. ولعل ورود مثل هذه الرؤيا عن إمام جليل كابن حنبل، تسوق الكثيرين وتلجم ألسنتهم، فلا يعترضون ولا يستنكرون، وإنما يصدقون وينفذون، ولكن الحق أحق أن يتبع، مهما كان القائل والراوي، ومهما كانت مكانته وتفرده وتميزه.. ويمكن أن يكون تقدير صحة هذه الرؤيا بفهم آخر غير الذي قد يستقر في أفهام الناس، فلعل المراد في قوله: بفهم أو بغير فهم، لا ينافي حصول ثواب التلاوة، وإن لم يفقه القارئ المعنى، لكن أين ذلك من القراءة المرسلة التى يقف عندها القارئ، ويتدبر معها معاني كتاب الله ومواعظه وأحكامه ووعده ووعيده.

قرأت في كتاب فيض الخاطر لأحمد أمين فذكر مقولة الصحابي الجليل المغيرة بن شعبة: (أحب الإمارة لثلاث وأكرهها لثلاث أحبها لرفع الأولياء، ووضع الأعداء، واسترخاص الأشياء. وأكرهها لروعة البريد، وموت العزل، وشماتة الأعداء) وليس معنى أن القائل من الصحابة الكرام أن يسلم بقوله، ولا يخضع للتحليل والنقد بمنظار

الكتاب والسنة وجوهر الإسلام، وهو ما فعله أحمد أمين حينما قال: إن هذا نظر غير صائب، وشعور غير نبيل، إنما تحب الإمارة للعدالة، وإيصال الحقوق لأصحابها، وتحقيق ما أمكن من إصلاح، أما حبها لنفع صديق وضر العدو، ونحو ذلك فنظر سطحى سخيف لا يصح أن يعرض على النشء.! وقد أعجبنى من أمين كونه مفكرًا حكم بجوهر الإسلام وروحه ومقاصده، ولكنه لم يعجبنى في استخدام بعض الألفاظ العنيفة الشديدة التى لا يجب أن تذكر مع مقام الصحبة ومكانة السلف.. كان يمكن له أن يعترض كما شاء ويترقق في العبارة قدر المستطاع، وهو الأدب المطلوب في التعامل مع عظماء الإسلام وصحابة النبى -صلى الله عليه وسلم-.

ولعله يلفتنا إلى قضية عظيمة في النقد، وهى الأدب، فلا يمكن أبدا أن يتحول النقد إلى معركة شخصية وتصفية حسابات، كما حدث من كثير من العلماء والأدباء والمفكرين في معاركهم وأفكارهم، وإنما لابد من الأدب.. وما أروع ابن المبارك حينما سئل عن رواية بعض المحدثين فرفضها وبين سقيمها، فقيل له نسألك عن صاحبها فأعاد على السامعين قوله في الأحاديث والرواية، ورفض الحديث عن صاحبها، ليعلم الناس أنه لا شأن له بالأشخاص، وإنما نقده في العلم وللعلم وحده.

جماهير بلهاء

كلمة الجماهير كلمة ضخمة وكبيرة وتمتلئ بكثير من الزهو والكبرياء والشعور بالقوة والنفوذ.. كانت هذه الكلمة قد أشيعت أكثر ما أشيعت في عهد عبد الناصر، حيث تصورات الجماهيرية والثورية والخيالات الخرقاء الجوفاء، التى كان يعيش فيها ذلك العصر، ولم يكن لها أي دليل من الواقع فلا سلطان ولا إرادة للجمهور في أي شيء، وإنما الناس كالدمى يتحركون وفق ما يريد السيد ويرغب السلطان.

والجماهير أكثر ما يمثلهم العوام الذين ينعدم الوعى في أفهامهم، ومن ثم تجدهم يرفضون التفكير أو التفهم أو التماس الأعذار، وتجد عواطفهم دومًا متحمسة ملتهبة لأي هفوة، وتثور لأي كلمة، فالمهم أن تعبر عن نفسها باستخراج الطاقة والشحنة الكامنة، دون النظر للعواقب والنتائج، بل دون النظر للمبدأ الذي تحركت من أجله وثارت في تأييده أهو خطأ أم صواب، ومن ثم كانت هذه الجماهير هى الأرض الخصبة للفتن والوقود المستعر لكل مؤامرة أو دسيسة.. شعوب كثيرة يعمد حكامها إلى تغييب عقول جماهيرها حتى يسهل عليهم خداعها، وتوجيههم حسب رغباتهم ومرادهم، معتمدين على تضليل الإعلام الذي يجد عبر الجهل وقلة الوعى أرضًا خصبة لغرس كل الدعاوى الخاطئة.

كان الخِطاب الذي ألقاه عبد الناصر بشأن الانفصال عن الوحدة مع سوريا شاهدًا قويا على سذاجة الجماهير التى ما تجمعت إلا للتصفق فقط، تصفق على قرار إرسال قوات لردع الحركة الانفصالية، ثم بعد ذلك تصفق عدة مرات لقرار التراجع والانسحاب عن التصدي لهذه الحركة في نفس الخطاب، اسمع الحديث بكل جمله وتفاصيله ثم استمع للتصفيق الحاد مع نهاية كل مقطع، مع أن الكلام الأول يخالف الكلام الثاني، ولكن شيئا واحدا هو المتفق عليه والمتشابه وهو تصفيق الجماهير.

نعم إنها الجماهير المغيبة عن الواقع التى لا تتقن إلا التصفيق والإعجاب والموافقة، وكأنها كالقطيع مسلوب الإرادة يوجهها الراعى حيثما يريد ويشاء.. وهذا المشهد يتضمن الأسى تارة ويتضمن الضحك والسخرية تارة أخرى، وأدهش منه ما روته السيدة روز اليوسف في مذكراتها أيام عدائها مع حزب الوفد، وقرار الحزب بفصلها والتبرؤ منها، فلم يكتف بإصدار بيان بهذا، بل خرجت بعض جماهيره بمظاهرة عارمة أمام مبنى ومقر جريدة روز اليوسف، يقودها "حسن يس" تهتف بحياة النحاس وسقوط روز اليوسف.. ترامى الهتاف إلى سمعها وهو محمل بأبشع الشتائم القاسية والنابية، ضدها وضد جريدتها، اتهمت روز هؤلاء الناس الذين هتفوا لها يوم عدائها لوزارة "توفيق نسيم" من أجل تعطيلها للدستور، بأنهم لا يمكن أن يكونوا قد فكروا في سبب خروجهم، أو يقلبوا الأمر على وجوهه، وإنما هو غشاء يضعه الزعماء على عيونهم فيرون الأشياء نفس الأشياء سوداء حينا وبيضاء حينا آخر.

تقول "روز": وغلى الدم في عروقى ولم أشعر إلا وأنا أندفع إلى شرفة المكتب، وأقف في مواجهة الجماهير الغاضبة، وكانوا يتوقعون أي شيء إلا خروج من يهتفون ضدها، وحينما رأوني صمتوا برهة من وقع المفاجأة، وهبطت أيديهم الملوحة، أما أنا فلم أنتظر بل هتفت وجسدي كله ينتفض بسقوط النحاس ومكرم، فردد الناس الهتاف خلفى بغير وعى على أن "حسن يس" زعيم المظاهرة لم يلبث أن أدركهم، فعادوا يرددون هتافاته ضدي وبحماسة أكثر التهابا.. وأمام هذا المشهد الغريب تشعر -ونحن في زمن الأثير أو -القنوات الفضائية- أن هؤلاء الناس أو هذه الجماهير، تشبه جهاز التلفاز الذي إذا أدرته على قناة موالية سمعت منها التأييد، وهو ذاته إذا أدرته على قناة معادية سمعت منها الهجوم والشجب، بينما الجهاز نفسه مسكين لا رأي له ولا إرادة، فهو جماد مصيره ونطقه ورأيه في يد من يملكه ويتحكم في إدارته.. إنها حالة اللاوعى التى صاحبت مصر فترات طويلة، وكان للجماهير الغافلة فيها تأثير كبير على صنع الرأي العام وتوجيه الشارع، حتى زال عهد "عبد الناصر"، واعترف الحكيم بما كانت عليه مصر فيما مضى في كتابه الخطير عودة الوعى.. ولله در القائل:

ها هم كما تهوى فحركهم دمى ❋ لا يفتحون بغير ما تهوى فما

إنا لنعلم أنهم قد جُمّعوا ❋ ليصفقوا إن شئت أن تتكلما

وهم الذين إذا صببت لنا الأسى ❋ هتفوا بأن تحيا لهم ولتسلما

ابن رشد المفترى عليه

بعد كثير من البحث ومعاينة كثير من الشبهات التى أثارها العلمانيون ضد كل ما هو دينى وإسلامى، تبين لى أن القوم يفرزون كثيرًا من الجهل والافتراء الذي قد يصل أحيانا إلى حد التهريج والتخريف والعبث والترهات.. نعم.. القوم فيهم جهل كبير عنيف، ولا يتحرجون إن كشفه الناس فيهم.. ولكن.. ليكن في علمك أنهم على قدر ما فيهم من جهل وسفه، ففيهم مكر شديد، يصل إلى حد المؤمراة والخبث في التدبير والكيد والتخطيط.

كنت قديما قد كتبت أن من أهم أسس التفكير الخبيث التى يلجأون إليها، أن يختاروا من علماء المسلمين من يوهموك أنه رمز العلمانية وشارة التنوير وضحية التشدد والأصولية والتعصب والانغلاق، وكل ذلك محاولة منهم لصبغ شبهاتهم بصبغة شرعية، وأن طريقهم المعوج له من يمثله من وجوه الاستقامة.

هكذا فعلوا مع الإمام محمد عبده، وقد يصيبك العجب حينما تجد علمانيا يتحدث عن الامام محمد عبده، ويحاول أن يصور لك أنه واضع أسس التنوير والعلمانية، وكل فكر من أفكارهم المنحرفة، وللأسف يأتى من يصدق هذا الكذب ويؤمن به ويعتقده، ولو أن الإمام محمد عبده كان حيًا لأقام على هؤلاء حربًا ضارية لا رحمة فيها، ولأعلن رفضه لكل أراجيفهم.. لكن مشكلتنا الكبيرة أن الجهل صارب فينا بجذوره، وهو المناخ الذي يتيح لهؤلاء أن ينشروا أكاذيبهم.

ولم يكن الامام محمد عبده وحده ضحية الكاذبين من العلمانينن، بل سبقه الإمام العظيم أبو الوليد بن رشد، وهكذا هم دائما يحاولون خداعك بأن لهم من يمثلهم قديمًا وحديثًا، وأن صورتهم لها أصولها في التاريخ القريب والبعيد.. ولك أن تتعجب حينما يشبه أحد الكتاب المخرفين رمزًا من رموز العلمانية واللادينية، وقد أثار جدلا وصخبًا بجهله وغروروه، بأنه ابن رشد المرحلة، رجل يتجرأ على نصوص القرآن وينكرها ويتهجم على السنة وينفيها، ثم يشبهه بابن رشد، وكأن ابن رشد كما صُور لهم رأس المنفلتين وعمدة المتمردين.!

من أين استمد هؤلاء مثل هذه الصورة المغلوطة عن الإمام ابن رشد؟ وهو الإمام الجليل الشأن عظيم القدر الذي كان يحكم بالقرآن والسنة، وله كتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد من أعظم أسفار الفقه الإسلامى جليلة المقام، والتى تدل على علم ثاقب، واحترام تام وكامل للإسلام وثوابته الدينية؟! فمن أين استمد هؤلاء هذه الصورة الغريبة عن ابن رشد، وتخيلوا أن الرجل متمرد على الله ورسوله؟

لقد "كان ابن رشد يؤكد أنه لا تعارض بين الدين والفلسفة، بما يدل على أنه كان ينطلق من النصوص الدينية ولا يدعو إلى الثورة عليها. وكتاباه: "مناهج الأدلة" و"فصل المقال" ينمان عن إيمان بالله سبحانه وباليوم الآخر وبالقرآن الكريم وبالرسول الذي أتى به. أقول هذا لأن الببغاوات يظنون أنه، رحمه الله، كان متمردا على الإسلام، ولذلك يمجدونه. وهم فى هذا إنما يرددون ما كان بعض الأوربيين فى عصر النهضة يقولونه عنه، وما أكثر من فى الحبس من مظاليم! وكان هناك

مدرس يحاضرنا فى الجامعة فى مادة "الفلسفة الإسلامية"، ويلح فى محاضراته على هذا المعنى، فكنت أذهب إلى المكتبة وأرجع إلى ابن رشد فألفيه رجلا مسلما صيحح الإسلام، فأسأله فى المحاضرة: كيف تقول هذا عنه يا دكتور، وكتابا "مناهج الأدلة" و"فصل المقال" يقولان عكس ما تدعى عليه؟ فيجيبنى بأن آراءه الحقيقية موجودة فى شرحه لأرسطو. وكان هذا الموقف ولا يزال مبعث استغراب عندى، إذ المعروف أن ناقل الكفر ليس بكافر، فمن باب الأولى أن نقول إن شارح الكفر ليس بكافر أيضا، بغض النظر عن عقيدة أرسطو فى حد ذاتها، فهذه مسألة أخرى."[1]

في عام 1997 أنتج فيلم المصير، سيناريو وتأليف المخرج يوسف شاهين، وهللت له الدنيا وحصد الجوائز وتحدث عنه الجميع ومن فرط الهول خيل إليك أن بعثًا جديدًا قد حدث، وأن الفيلم حقق الانتصار العظيم والانتفاضة التى تجاهد من أجلها العلمانية، ولأن واضع الفيلم رجل علماني فقد أساء لتاريخنا ورموزنا وحرف الصورة والسيرة وشوه الحق والحقيقة، وصنع تاريخًا يخصه هو ولا يمس الحقيقة في شيء.. لم يخدم به العلمانية أو الفكر المنحرف الذي يقوم على حرب الدين، وإنما خدم أكثر ما خدم طبقة الممثلين والرقاصين والطبالين، وبين أن هؤلاء على أيدهم الحل من كل مشكلات الحياة والمجتمع والناس، ثم ساند هذا التخريف حملات إعلامية ضخمة أوهمتنا أن هذا العبث والتهريج معجزة فنية لا مثيل لها.. نعم حاولت أجهزة الاعلام أن تصور للعالم أن فيلم المصير معجزة فنية لا مثيل لها.

1 - ابن رشد نظرة مغايرة د- إبراهيم عوض

وأذكر يومها أن أفضل وأحسن رد على هذا السخف الممجوج، كان رد الكاتب الكبير فهمى هويدي بمقالة ضافية نشرتها جريدة الأهرام تحت عنوان (فضيحة ثقافية) نوه فيها بجناية الفيلم وتشويهه للتاريخ، وافترائه على ابن رشد، فالفيلم يحمل قضية أن الرقص هو الحل، وكانت أحداثه تدور حول ابن رشد، وكيف كانت ثورته على الجامدين والمتشددين؟ الذين جعل من رموزهم الدينية القاضى عياض، وهو الذي لم يعاصر ابن رشد، ويعد من أكابر وعظماء علماء الإسلام، لكن يوسف شاهين بعبثياته جعل منه زعيم المنافقين والمنحرفين والمكفرين.

ساق هويدي شهادة الدكتور عاطف العراقى بأن الفيلم من الناحية التاريخية نوع من "البكش" أو التدليس، وأضاف إن أي مشاهد من بلاد المغرب التى تعرف ابن رشد جديًا، سيعتبر الفيلم "فضيحة" لا تغتفر بحال.. الفيلم أساء إلى ابن رشد إساءة كبيرة، ومسخه بجرأة تثير الدهشة، حتى قدمه في صورة على النقيض تمامًا مما كان عليها.. يذكر هويدي ما قاله العقاد عن ابن رشد في قوله: " لم يذكر قط عن القاضى الفيلسوف خبر من أخبار التبسط لمجالس اللهو والطرب، مما استباحه جملة من أبناء عصره، ومنهم طائفة من العلماء والحكماء، بل كان يتعفف عن حضور المجالس، وبلغ من تعففه عما يراه خليقا بعلمه ومكانه من القضاء أنه أحرق شعرا نظمه في الغزل أيام شبابه"

يقول هويدي: هذا الرجل الوقور والجاد قلبه يوسف شاهين رأسا على عقب، فقد أسقط عنه لقب الفقيه، ولم نره طوال الفيلم يذكر الله أو ركع له ركعة واحدة، وقد قدمه بأنه محب للأنس والطرب

والمجون، ويقول: الرقص والغناء هما تعبير عن حب الحياة، بل قام يغنى بصوت خفيض مع الأسرة الغجرية، وهو الذي كما ذُكر سابقًا كان يتعفف عن تلك المجالس ولم يذكر عنه قط خبر من أخبار التبسط لمجالس اللهو والطرب.

هذا هو الإمام ابن رشد ضحية المخرفين المنفلتين من العلمانيين وغيرهم من أهل الفسق والمجون.. جاءت جنايتهم على الرجل مستغلين جهل الناس بتاريخه فصدقهم بعضهم وجعل ابن رشد آفة الانفلات العقلى المصادم للشريعة، وما كانت تلك حقيقة الرجل، وإنما كان الافتراء كبيرًا على عالم فقيه مسلم يحترم دينه وثوابته ولم يكن عليها من المتمردين المنكرين.

آه يا ليلى

تابعت مؤخرًا مسلسل **نسل الأغراب** الذي أذيع في رمضان مضى، وكان مما استلفتنى فيه أن أسماء، هما **سليم وحمزة** وهذان الاسمان تحديدًا من أسماء المسلمين الأصيلة المعروفة، التى يتسمى بها الشعب المصري، مشيرًا بها إلى اعتزازه بهويته وأصالته الإسلامية، وشدة تقديره لشخصيات دينه اللامعة من أبطاله الميامين السامقين.

فاسم **حمزة** كما هو معروف، شهيد الشهداء وعم النبى –صلى الله عليه وسلم–، وبطل الإسلام الخالد.

أما اسم **سليم** فهو اسم السلطان العثماني الفاتح المسلم، صاحب البطولات والفتوحات الكبيرة المدوية، ومن قام برفع الظلم عن المصريين، حينما أزاح عن بلادنا وإلى الأبد ظلم دولة المماليك، وكان آخر سلاطينهم **طومان باي**.

ولعلى هنا والمناسبات تجر بعضها بعضا، أن أتذكر تلك المعركة التى أشعل أوارها سدنة العلمانية وهم يصفقون للقرار الذي اتخذته الدولة من فترة مضت بحذف اسم السلطان **سليم** من أحد شوارع القاهرة، وتغييره باسم البابا شنودة، ولعل الدولة لها عذرها السياسي في

هذا القرار، والذي لا نتطرق إليه، أو أنها تريد به أن تعزز من مشاعر المواطنة في مصر بين المسلمين والمسيحيين، لكن فرحة العلمانيين بهذا القرار، لم تكن إلا لأنه في تصورهم بمثابة عدوان على شخصية إسلامية مرموقة، وهو ما يصب في خدمة أغراضهم التى تكيد للإسلام ليل نهار.

لقد حاولوا كثيرا أن يثبتوا للمصريين أن هذا السلطان المملوكى **طومان باي،** الذي ينحدر من دولة عريقة في الظلم والافتراء، مصري ويمثل المصريين، وما هو إلا مملوك لا يمثل مصر في شيء، ولا ينتسب إلى شعبها من قريب أو بعيد.. ولكن لأن السلطان الذي كسره وقهره وقتله ينتسب لدولة وصفت بأنها حامية الإسلام، فإنهم حاولوا أن يصوروا للدنيا كلها أن **طومان باي** مصري ابن مصري، ويمثل المصريين.. وعجبًا أمرهم.. ولقد أعجبنى أحد المفكرين وهو يرد فرية العلمانيين المتشنجين بقوله: هناك أكثر من مليوني مصري اسمهم **سليم،** ولا يوجد مصري واحد اسمه **طومان باي**.! فأي الاسمين يمثل المصريين إذن؟! إن هذا الرد لم يكن مفحما فقط، وإنما كان بمثابة ضربة على القفى، أو لطمة على الوجه.

ومثله تماما ما قامت به إحدى الفتيات حينما ألفت رواية اسم بطلتها **إيزيس،** وهو اسم الشخصية المصرية العريقة، لكن هذه المناسبة لم تفت العلمانيين حتى يولغوا فيها بأحقادهم، وينفسون منها عن حرقتهم، ففي ندوة بالبرنامج الثاني والتي أقيمت لتقييم الرواية، قالت المذيعة

معلقة على العمل: "إن المؤلفة قد اختارت اسم **إيزيس** بدل **ليلى** هذه الرمة المدفونة في صحراء العرب، ولا يحسها أحد في مصر"

قالت المذيعة هذه الجملة النكراء، ولم يعترض عليها أحد، حتى رد عليها أحد العلماء الكبار وهو يستمع إلى هذا اللغو الفارغ، فكتب معلقا بمثل ما علق به المفكر السابق وقال: "يا هذه إن اسم **ليلى** يوجد في كل صف من صفوف مدارس البنات، بحيث يشتمل الصف الواحد على عدة ليلات**!** وما وجدت **إيزيس** في كشف من كشوف الأسماء، فكيف تكون **ليلى** رمة مدفونة بصحراء العرب لا يحسها أحد في مصر**!** ولديك أسماء الفنانات وهن أقرب إلى التفرنج المبهر، فمن أسمائهن: ليلى مراد، وليلى فوزي، وليلى حمادة، وليلى طاهر، وليلى علوي وليلى جمال، وليلى نظمى ومن لا أعرف من حسان هذا الميدان**!**

ولست أجحد مقام إيزيس فأنا مصري عريق، ولكنى أستنكر هذه الطفولة العابثة التى تهتف بما لا تعرف**!** إن اسم **ليلى** في الأدب العربي كاسم جوليت في الأدب الإنجليزي، واسم شرين في الأدب الفارسى، وقد جرى المثل العربي بقول القائل: (كل يغنى على ليلاه)"

لا تعجب ياسيدي الكبير، الجحود أعمى لايبصر الحقيقة، ويرمينا أصحابه كل يوم بما يصدم ضمائرنا وعقائدنا فإلى الله المشتكى.

تنبهوا لما خفي عنهم

كثير من الناس والشخصيات التى تحيط بنا، لديهم خبرات وإمكانات ومآثر وفنون ومدهشات وعجائب ومهمات، تستحق أن تُكتب وتخرج إلى الناس، وينعم بجمالها كل قارئ يسعى إلى المتعة والتزود من خبرات وعبر من سبقوه.. لكن هؤلاء وللأسف تعتريهم غفلة وغيبة وإهمال حينما لا يدرون أن ما لديهم يمكن أن يهتم به أحد، أو تصغى إليه أذن، أو يعمل فيه عقل باهتمام وتركيز.

ويعجب المرء لرجل بلغ الستين أو السبعين، وقضى حياته وأيامه محتكًا بالناس غارقا في الأحداث والمواقف والذكريات، أيعقل ألا يكون لديه ما يكتب ويروى، ويعتبر منه، لا شك أن كل فرد من الطاعنين في السن، لديه ذخيرة ضخمة من المواقف والحكايات التى تضج بها أيامه وعقود عمره، لماذا لا يكتب ويحكى ويروي علينا ما شهده من غرائب الناس وطبائع البشر، وما لمسه بيديه من تجارب علمته كثيرا من معانى الحياة؟!

كثير من الكتب القيمة، والصفحات المشوقة، التى يرويها أصحابها لم تكن في البداية مقدر لها أن تخرج في كتاب يضم ويجمع ما استقر في أوعيتهم من هذا المجموع، لولا أن قيض الله لهم من حولهم ممن تنبه لجمال ما لديهم، وحثهم على جمعه وطبعه في كتاب، صار فيما بعد

مفخرة لهم، ودرة يسعى إليها طلاب المعرفة.. حتى بعض العلماء والمفكرين يمكن أن تجد لديهم الكثير في فن من الفنون، لكنهم لا يتوقعون أنه يمكن أن يكون كتابًا ملهما، ويخرج فيما بعد ليعد سفرًا له قيمته وأثره وتفرده.. وفي مقدمات كثير منهم، كنا نقرأ أن مادة هذا الكتاب لم تكن إلا محاضرات ألقاها صاحبها، ثم ألح عليه بعض تلاميذه أن تجمع في كتاب يفيد الناس، حتى إذا ما تحققت الغاية، تبين أن حس هؤلاء الطلاب كان صائبًا وسليمًا.

لي صديق لديه من المواقف والخبرات الحياتية، ما يدهش الألباب ويحير العقول، وكم تمنيت أن يجمع ما يعرف ويروي في كتاب، لكن عجزه عن الكتابة منعه من هذا، ولم أجد بدًا من أن أكتب وراءه ما أسمعه منه، وجهز لدي كتاب جميل تحت عنوان **(قال لي صديقي)** وبدلا من أن ينتسب الكتاب له، رأيت أن أنسبه لنفسي عوضًا عن جهدي فيه، وعقابًا لعجزه عن الكتابة.. ولعله حال الكثيرين ممن نراهم ونقابلهم في حياتنا، على اختلاف مستواهم التعليمي، حتى الجهلاء الذين لم يتعلموا في المدارس، تجد لدى الكثيرين منهم قصصًا وحكايات ومواقف تستحق أن يقرأها الناس ويتعجبون من أحوال أصحابها.

ولعل السبب في ضياع كثير من هذه الفرص، لا لأن أصحابها غافلون نائمون لا يبالون، ولكن ربما يرجع الكثير منها في غفلتنا نحن عن كثير من هذه الفرص الرائعة، فقد تكاسلنا أن نوقظها فيهم، ونشعل حماسهم للعمل فيها، ومن هنا كانت دعوتي لهذه اليقظة، في التنقيب عن هذه المبهرات التي تحويها عقول بعض الناس ومخايلهم.

كتب أحد المفكرين مؤخرًا كتابًا أحدث دويًا كبيرًا وهائلا، وكان الإقبال عليه حال طبعه، يتسابق نحوه القراء والمثقفون، ولكنى دهشت حينما علمت أن هذا كان مجرد حلقات يكتبها في البداية، ولم يكن في خاطره أبدًا أن يضمها كتاب مؤثر، ولكنها كانت بعد إلحاح كثير من أصدقائه، الذين كان لديهم بعد نظر، وحس مستقبلى، وأفق سباق، بما يمكن أن تحدثه هذه المادة لو ضمها كتاب، وهو ما حدث فعلا فيما بعد.

هناك بعض المتحدثين الذين يهربون من الكتابة هروب الفريسة من مخالب الأسد، يخافون منها ويشعرون أنها ميدان له أهله وصنّاعه، وأنهم لو طرقوها فلن يرحب بهم أحد، كما يرحبون بهم في ميدان الإلقاء والخطابة، وقد رأيت هذا بنفسى حينما كنا نترجى أحد الشيوخ أن يكتب بعض محاضراته التى يلقيها على المستمعين، لكن عجزه وانعدام رغبته في الكتابة، وتجشمه لعنائها، حال بيننا وبين أمنياتنا، مما جعلنا نسجل له محاضراته، ونحاول أن نفرغها، لنؤهلها بعد الصياغة اللازمة.. كتابا رنانا.

وكثير من هؤلاء النابهين لا ينقصهم فقط سوى التشجيع والتحفيز، ولفت أنظاهرهم لهذا الطريق الذي يمكن أن ينتجوا فيه شيئًا مهمًا، ويحدثوا فيه أثرا مذكورًا، ولله در هذه المرأة التى ظلمها زوجها ولم يعاشرها بالمعروف، ولم يتق الله فيها، لقد كانت عشرته لها مجردة من الإنسانية والذوق والرحمة والعدالة والأخلاق، وشاء الله أن تتحرر المسكينة من هذا الطاغية الأثيم، الذي كان وصمة عار في دنيا الرجولة، انفصلت عنه وبدأت تشعر بذاتها وإنسانيتها، وأبدًا لم تر في نفسها أنها

خسرت شيئا، بل كسبت كثيرًا حينما ارتدت إليها إنسانيتها، واحترامها لذاتها، وشعورها بكيانها، وليت هذا فحسب، بل تفتقت مواهبها وملامح نبوغها، فأخذت تحاضر الناس وتعمل في ميادين التدريب، وتحكى كثيرًا مما مرت به من محن، وما رأته من أهوال على يد رجل لا يتقى الله، فاقترح عليها كثيرون ممن أبهرهم صبرها، وهالهم ما عانته وتجرعته، أن تكتب ذكرياتها المُرة، وتحكى قصتها الأليمة، وكيف استفاقت وخرجت من هذا الأتون الكئيب المظلم، إلى النور والحرية وتحقيق الذات، لتكون قصتها عبرة ومثالا، يعتبر به الناس، وتتأمل منه كل مظلومة، كيف يمكن أن تصنع لنفسها طريقا آخر، أكثر كرامة واحتراما لآدميتها فعلا أجابت الطلب واقتنعت بالنصح، ورأت في هذا المؤلف سلوة لها عما مر من جراح، ونفعها كثيرًا في عملها ومحاضراتها، بل حفزها أن تقتحم ميدان التأليف بعدما نجحت تجربتها الأولى فكتبت مزيدًا من الكتب والروايات الأدبية، وصارت اليوم شيئا آخر، أكثر وضاءة ورقيًا مما مضى، وأخذت تنظر وهى في مكانتها البهية، إلى تلك السنوات العجاف التى قضتها مع رجل جحود، لتكون في وجدانها أشبه بسجن معتم لا بصر فيه ولا بصيرة ولا نور.

شبح المعاش

صحوت من نومى متثاقلا، لكننى ذهبت كعادتي مع إشراق كل صباح، لأعد قهوتي التى أتناولها حتى يستقيم مزاجى ويعتدل يومى.. إننى هذه الأيام أصارع الوقت والحياة، لانتهى من أكبر قدر من الكتب التى اخترتها من رفوف مكتبتى، أريد التهامها قبل مرور هذا العام الذي أوشك على نهايته، وقد شغلتنى عنها بعض الهموم والخطوب.

كانت مصادفة غريبة حينما كنت أتأمل كتاب صديقى الدكتور منير لطفى (**حياتنا بعد الستين**) وما فيه من بصائر لمن بلغوا هذه السن، كيف يتعاملون مع مستجداته وأيامه وأطواره.. لفت نظري جمال الكتاب وروعة طباعته وخلابة غلافه، وهو ما حركنى سريعًا أن أجري اتصالا، بهذه السيدة التى تطبع لى كتابي، ووعدتنى أنه سيكون قريبا بين يدي.. هاتفتها حتى أطمئن على إنجازها لوعدها: هل انتهت من طباعته، أم أنه مازال متجمدًا لم يصبه الدور حتى يخرج للنور، كنت قلقًا ومتعجلا أن أرى ثمرة فكري ماثلا أمامى يسر ناظري ويبهج فؤادي، تماما كهذا المولود الذي ينتظره أبواه ليكون قرة عين لهما، وزهرة مشرقة تمزج حياتهما بمعاني الجمال.

رن الهاتف وسرعان ما ردت بكلمات سريعة خاطفة: اتصل بى مرة أخرى فأنا في محاضرة.. لم تكن السيدة صاحبة الدار صغيرة في السن،

ولكنها في عقد الخمسينات، فتعجبت من جوابها، فأي محاضرة تستمع، لا يمكن طبعا أن تكون محاضرة جامعية! ولعلها في ندوة أدبية، أو لبت دعوة صالون لأحد المثقفين، أو اضطرتها الظروف أن تستمع لأحد المحاضرين من المفكرين والأدباء في منتدى أو لقاء.. ومرت بضع ساعات حتى عاودت اتصالى بها مرة أخرى، فقالت لى: معذرة لم أستطع أن أجيبك لانشغالى، لكن كتابك قيم وقريبًا جدًا سيرى النور وتسرك رؤيته.. فرحت كثيرًا وشكرتها أكثر، ثم لا أعرف ما الذي دعانى متطفلا أن أسألها عن المحاضرة، ومن كان المحاضر، وفي أي صالون كانت الدعوة؟

فما دام أمرًا يخص الأدب والفكر، فأحب أن أكون منه على بينة ودراية، أتتبع أخبارهم وأستمع لجديدهم، ولا شك أن في جوابها ما يفيد.. ثم كانت المفاجأة حينما أخبرتنى أنها محاضرة فى الجامعة، لأنها تدرس دبلومة تؤهلها لدرجتى الماجستير والدكتوراه، تعجبت مما قيل، ماجستير ودكتوراه ودبلومة؟! لكنك معينة وموظفة، ثم قفزت بى الغرابة لأتناسى بعض ذوقى، حينما أخبرتها أن سنها قد تقدم وهذا لا يناسبها ويجهدها كثيرًا، لما يتطلب من السفر والقراءة والتحصيل، والجري وراء المشرفين.. صمتت بعض الشيء ثم قالت: لن أقول لك: إننى طالبة علم، ولن أقول لك: إن المرء يطلب العلم دون اعتبار للسن والوقت، ولن أقول لك: إننى أهوى الدراسة، ولن أقول لك: إننى أحب لقب الدكتورة، لأتباهى به بين الناس، وأرفع به من قيمة نفسى.. لكن أصدقك القول حتى تتعلم وتؤهل نفسك لذات الخطوة حينما تبلغ من العمر ما بلغت، فهناك بعد سن الستين شبح ينتظر كل موظف يترك

عمله، اسمه سن المعاش، تتبعه أشباحا أخرى تخرج من غيومه، كالوحدة والفراغ والملل، الذي لو استبدت بالإنسان لقتلت فيه معنى الحياة، ودمرت نفسه، وجعله عرضة لاكتئاب بغيض.. نصيحتى لك أن تجتهد من اليوم وتؤهل نفسك لما بعد يوم المعاش، ماذا تفعل وكيف ستكون، وكيف ستحيا أيامك، وما الدور الذي تقوم به، بل ما حلمك الذي ترجوه..

احذر أن تركن إلى البيت وتأوي إليه، لتكون كالأساس القابع في جنباته لا قيمة لك، ولا طموح ترنو إليه، ولا هدف يشغل حياتك لتحققه، ولا غاية تسعى إليها بوقتك الطويل.. واعلم جيدًا أنك لو أهملت هذا النصح، ولم تعمل لذلك اليوم، فقدت أهلت نفسك للضياع والوحشة والمرارة التى ستمتزج بأيامك وحياتك فتحيلها نكدة آسنة.. أنا أدرس وأؤلف وأعمل وأقرأ وأحضر الندوات، وأستمع للأدباء والمفكرين، وأستعد قريبًا لخوض رسالة الماجستير، ومن بعدها الدكتوراه.

لا يمكن أن أقعد أبدًا

لا يمكن أن أعجز أبدًا

لا يمكن أن أضيع أبدًا

لا يمكن أن أكون فريسة للاكتئاب أبدًا.

لا يخدعنك بعض هؤلاء السذج الذين يقول لك أحدهم: إننى أنتظر المعاش بفارغ الصبر حتى أستريح، وأعيش حياة هانئة مريحة، بلا

أتراح ولا هموم ولا مشاغل.. ولا يعلم المسكين، أنه يتعجل سجن المعاش لا راحة المعاش.. تأملت كلامها وما فيه من حكمة عظيمة، وموعظة بليغة، وأكبرت فيها همتها وطموحها.. حقا حينما يصل المرء إلى هذا السن ويبادره شعور بأنه لا قيمة له، ولا عمل يؤديه، ولا مهمة تحتاجه في الحياة، فياله من إحساس عاصف كئيب يأكل النفس حسرة وكمدًا.

وفور كلامها الذي وخذ عقلى بما يحمله من صواب، تذكرت قريبًا لى، يوم أن خرج على المعاش، وإذا به يتحول لإنسان عصبى ثائر، غير الذي كنا نعرف عنه من هدوء واتزان، كان كل يوم في خلاف وشجار مع زوجته وأولاده، حتى كان أحدهم يدعو عليه أن يموت، وتنتهى حياته حتى تنتهى آلامهم معه.. وظل هذا الرجل على حاله، حتى أخذته أزمة قلبية في شجار مع ولده الأصغر، وكانت النهاية التى لم يكن سببها قلة أدب الأبناء، وانعدام خلقهم، ولا كونه صار عصبيا ثائرًا، وإنما لأنه لم يعد عدته لهذا اليوم المشهود، يوم المعاش.. ما زلت حتى الآن لا أعلم ما هذه الصدفة العجيبة التى جمعت بين هذا الحديث، وبين كتاب صديقى (**حياتنا بعد الستين**) هل كان ذلك مجرد صدفة أن يكون الحديث في ذات الوجهة التى يحمل الكتاب عنوانها، أم أنه كان إرهاصا بما سأسمعه بعد لحظات، أو لعلها كانت إشارة مهمة تريد أن توجهنى من اليوم للعمل لمثل هذا اليوم الذي فعلا يستحق أن يسمى شبحًا.

لا والله إنهم يكذبون

صديقى رجل متعلم، وهو مؤمن إيمانا جازمًا بأن الأطفال لا يكذبون.. ولكنى أعلم غير ذلك ومن مشاهد الواقع والطبيعة والخبرة بتربية الأطفال، أنهم يكذبون وانه طبع فيهم وديدن يمارسونه باستمرار.

بل أعرف من الأطفال من لديه القدرة ان يوقع بلدين في بعضهما ويولد بينهما معارك وشحناء، وأعرف منهم من يمكنه ان يتسبب في هدم البيوت والخلاف بين العائلات.. ثم يأتى صاحبى بعد كل هذا الواقع المشاهد المجرب ليعلن أمامى إيمانه الصارخ بان الأطفال لا يكذبون.؟! وليسمح لى صاحبى ان أقول له: إن إيمانك هذا وهم وسراب، وإنك لو صدقت الطفل في كل يا ينقله ويحكيه، فسوف تقاتل كل العالم وتخاصم كل الدنيا من حولك.

أذكر أن والدا من الجماعة الدراويش، قابلنى يوما ومعه طفله الصغير، ودار بيننا نقاش فقال لى: أنا أصدق هذا الغلام في كل ما يقول، لأن صفحته بيضاء عند الله، فإذا قال لي: إن فلانا -حلو-صدقته، ولو قال لى فلان -وحش- صدقته.. أما انا فأجزم أن تصديق طفل صغير لا فهم ولا خبرة لديه بالناس، في مثل هذا.. وهم وبله وجنون، وإننا بهذا التصديق لا نحترم نعمة العقل التى وهبنا الله إياها وركبها في أدمغتنا لنحكم بها في علاقاتنا مع البشر.

أنا واحد من الناس كثيرا ما اوقعنى بعض الاطفال في حرج، حينما تعرضت لكذبهم، وافترائهم على، وأحاول تفهيم الأخرين وتبرئة نفسى مما افتراه الطفل أو الطفلة على، فأجد نفسى ضعيفا لا أستطيع، لأن مجتمعاتنا البلهاء تقدس مقولة: الأطفال لا يكذبون، وهو من صور الجهل الذي ترتع فيه العقول التى تفتقد العلم والفهم والثقافة.. لأنه للأسف لا يوجد كذبا أكثر من كذب الاطفال.. ناهيك عن انهم لو صدقوا فإنهم ينقلون الكلام في غير السياق الذي قيل فيه، فيتركون لنفسك العنان ان تفسر ما قيل على أقبح صورة، وتظلم غيرك وتظن فيه ظن السوء، ودليلك وبرهانك في هذا هو أن الطفل لا يكذب.. ووالله إنه لكذاب.

كنت في بعض المناقشات، وعرض على موقف من المواقف، فقلت: هذا خطأ وتصرف مجنون، ومعنى الكلام ان فلانا لو فعل هذا فإنه من قبيل الخطأ والجنون.. ومن حظى السيء ان سمعنى طفله وأبلغ اباه بما قلت، وقد حزن الرجل من كلامى، وضاق بي وظن بي الظنون، وحاولت شرح الامر له، لكنه كان يرد على: بأن الأطفال لا يكذبون.! يا صديقى لم يكن الكلام على هذا السياق.. ولكنه لا يريد تصديقى، لأنه يؤمن بمعتقد أقوى وهو أن الأطفال لا يكذبون.. وأنا هنا أحاول اللجوء إلى الخبراء والأطباء الذين يقرون كذب الأطفال، ويؤكدون وجوده، فقرأت في الانترنت وعلمت أن هناك أسباب تدفع الأطفال نحو الكذب، ومنها:

"الخيال: يكون خيال الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة خصبًا جدًّا، حتى أن كذبه في تلك المرحلة لا يُعد كذبًا، بل يُسميه البعض «كذبًا خياليًّا»؛ نظرًا لأن قدرته على التفريق بين الحقيقة والخيال في هذه المرحلة تكون غير مكتملة، ولحبه للقصص والحكايات واستمتاعه بسردها وتأليفها.

الفضول: قد يتساءل الطفل في نفسه: «ما الذي سيحدث إذا قلت أمرًا لم يحدث؟ أو إذا كذبت بشأن أمر ما؟» فيجرب الطفل الكذب بدافع الفضول للإجابة عن تساؤلاته ومعرفة عواقب تجربته.

صرف تركيز الأبوين عنهم: يميل الأطفال الذين يعانون من التوتر أو الاكتئاب إلى الكذب لإخفاء أعراضهم أو تخفيف وصفها، كيلا يشعروا بقلق أبويهم نحوهم أو تعاطفهم معهم.. السعى وراء تحقيق ذواتهم: يكذب بعض الأطفال بغرض رفع ثقتهم بأنفسهم إذا كانوا يعانون من نقصها؛ فتجدهم يحكون قصصًا عن أنفسهم تُشير لمهارات ومواهب لا يمتلكوها، سعيًا وراء ثناء من حولهم وتقديرهم.

التسرع: قد يُجيب بعض الأطفال عن الأسئلة قبل حتى التفكير فيها، لا سيما أولئك الذين يعاونون من اضطراب قصور الانتباه وضعف الحركة، فمنهم من قد يجيبك إجابة تبدو كذبةً، لكن الطفل صادق ولا يتذكر غير ما قال."

وفي محاولة منى لإدراك أبعاد الموضوع والوقوف على وجوده من عدمه، لجأت إلى الصديقة الدكتورة منى قابل الأخصايية النفسية البارعة

والخبيرة بهذه الميادين، لاستعلم منها دقائق الموضوع فكان جوابها مايلى: "الأطفال فعلا يكذبون لكنه الكذب الذي نتقبله لأنه لا يؤذي أحدا ويكون مصدره الخيال الخصب للطفل، ولكن مع بلوغهم 5 او 6 سنوات، يبدأ هذا الكذب يتطور ويدعمه الطفل ويمنطقه بحيث يكون مقبولا عند الكبار ويكون اكثر معقولية.. يحاولون استخدام الكذب للتودد للآخرين، ويرون ان الكذب أكثر قدرة على مجاملة البعض وكسب وده.. ولكن إذا استمر الكذب فهذا يعنى ان هناك مشكلة ولابد لها من علاج." كل هذه وغيرها أسباب تسهم في ابتكار الكذب عند الاطفال كحقيقة علمية نفسية.. وأحب القول: إن كذب الطفل لا يميز وغير مرتب أو مختار، فقد يكذب كذبا عظيما لو أننا أخذنا به لاستحللنا دماء الناس وأعراضهم.

رجاء كونوا عقلاء ولا تصدقوا الأطفال، فإنهم يكذبون، خاصة في هذا الزمن الذي افتقدت فيه كثير من الأسر مقومات التربية السليمة، التى تخرج أطفالا غير أسوياء، ثم بعد ذلك نعلى شعار الأطفال لا يكذبون.. كيف لا يكذبون في هذه المناخات الشوهاء، الا إنهم يساقون إلى سلوك الكذب سوقا، ليتنامى معهم عبر الزمان ومع مرور الوقت ليصير طبعا وخلقًا وسلوكًا.

قوة التأثير

هناك قوم يتأثرون بالمكتوب، وهناك آخرون يتأثرون بالمنطوق، وهناك غيرهم يتأثرون بالحال والواقع المشاهد.

وقد كان أحد الدعاة يدافع يومًا عن تعظيمه لشيخه فكتب يقول: "يعيب علينا الناس أننا نعظمه، ولدينا العذر في هذا فقد رأينا رجلا من السلف الصالح يمشى على الأرض".أي أن شيخه تجسد أمامهم في القرن العشرين، في صورة السلف الصالح، وما قرؤوا عن أخلاقهم في الكتب.. لا أعرف هذه الحالة الغريبة التى كنا نشعر بها ونحن في دروس الراحل الفقيه الكبير الشيخ حسن أيوب؟ لقد كان الرجل مؤثرًا، وصوته نافذًا في أعماق النفس، ضاربًا على أوتار القلب.

والتأثير وقوته وفاعليته في الغير، موهبة وخصيصة وخارقة، لا يتمتع بها الكثيرون، وإذا أوتيها المصلحون كانت أسهل أسلحتهم وطرقهم في تحقيق مكاسب كبيرة، تخدم رسالتهم الإصلاحية، وتوفر لهم كثيراً من الجهود، حتى يجمعوا الناس على ما يريدون.

لقد عرفت الدنيا بعض الأئمة، ممن كان يؤثر في الناس، لا بكلامه ولا حاله ولا قلمه، بقدر ما كان يؤثر فيهم بمجرد النظر إلى عينيه، التى كانت تحمل كثيراً من المعاني والقيم والغايات، بل قال بعضهم عن شيخه: كانت عينيه تبعث على همة عظيمة، وكان إذا وقف ليخطب سحر الناس ببيانه، فلا يسعك وأنت تسمعه، إلا أن تسلم له بكل جوارحك.!

وفي حياة السلف الصالح من كان يقف ليعظ الناس، فكان من شدة تأثيره أن يموت بعضهم من بالغ وعظه وأثره في أنفسهم كما كان من حال ابن الجوزي.. وعلى المصلح أن يتحسس مناط التأثير في نفسه، هل هو يؤثر في كلامه، أم في قلمه، أم في مواقفه العملية، وليوغل فيه حينما يتبين له المراد، حتى يكون أكثر قربًا ونجاحًا من تحقيق غايته.. ولكن الفعل يملكه كل أحد، فما عليك إلا أن تنفذ الحق في نفسك، حتى يراك الأخرون ويتبعونك فيه، ويعجبون بتمسكك به، لكن الأصعب والذي يعد من قبيل المواهب الخاصة، أن يكون قولك مؤثرًا تبعث به الحماسة، وتفجر به الثورات العارمة، وتوقظ به النفوس الخاملة، إن الخومينى فجر الثورة بأشرطة الكاست، وقلب بخطبه الدنيا على شاه إيران، حتى سقط عرش الطاووس، وقال أحمد أمين: "حدثنى من أثق به: أن الأستاذ جمال الدين الأفغاني، كان يرتطن عجمة، ولم يكن فصيح اللسان، ولا سلسل القول؛ ولكن تجلس معه فيشعلك نارًا دونها فصاحة الفصيح، وبلاغة البليغ؛ لأنها النفس مستودع كهربائى، قوي يصعد أحياناً ويضئ أحياناً أخرى، ويدفع للحركة أحيانا".

وهناك من يؤثرون في الناس بمظاهرهم وهيأتهم، فما أن تراهم، حتى تحب أن تكون مثلهم، كأن ترى شيخًا معممًا ذا لحية كثة، فتحب العلم والعلماء، أو تشاهد غيره في لباس الزاهدين، وثوب المتصوفين، فتحب الزهد والتصوف.. وتعمد الحركات دومًا إلى تنصيب مناط قيادتها، لمثل هذه النماذج المؤثرة، التى تتمتع بكاريزما قوية حتى يكون لها نتائجها المؤثرة في جمع الناس حولها وتأييدها لفكرتها، وتعمد في صحفها إلى تصدير أقلام المحترفين منها، الذين يملكون أو تملك أقلامهم إيقاظ مشاعر الناس.

إن مثل هذه المظاهر والمؤثرات يمكن أن يكون لها فعل السحر في الإنسان، ومع وجودها لا يلتفت الإنسان إلى شيء يضره أو ينفعه، لقد كان ناصر يتمتع بكاريزما قوية، يؤثر بها على الناس بهيئته وخطبه، وهو في ذات الوقت قد أغرق البلاد في الهزيمة والضياع، ومن العجب أن الناس حتى هذه اللحظة تجد الكثيرين منهم ما زال متأثرًا به، يعلق صورته، ويعيش في أيامه، ويراه رمز الخلاص، وقد كان في حقيقته رمز الهوان والضياع والهزيمة.

لقد كانت قريش تعيش في فزع كبير من القرآن الكريم، الذي كان يردده رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في بداية الدعوة، لأنه كلام مؤثر، كانوا لا يخشون منه على العامة وحدهم، وإنما كانت فتنته تتسرب إلى الخاصة أنفسهم، حتى قال فيه سيدهم قولا ما قيل فيه من قبل: والله إنه لحلاوة وإن عليه لطلاوة.

ولا شك أن فاعلية التأثير في القول والقلم، قد تضيع وتنتهي وتذوب لو خالفها واقع الكاتب أو المتحدث، فكيف يأمر بالفضيلة وهو عربيد، وكيف يحث على البطولة وهو جبان؟ فإذا كنت تتمتع بملكة التأثير في أمر من الأمور الثلاثة، ولا تفتقر في غيرهما، فاحرص ألا يراك الناس فيما لا أثر لك فيه، حتى لا يضيع تأثيرك فيهم، فيما تملك التأثير فيه.! كأن تكون مؤثرًا في الحديث، لكن حالك لا يوافق أطماح لسانك.

والتأثير مستويات: فهناك من يؤثر على العامة، ولا يؤثر على الخاصة، وهناك من يؤثر على الخاصة، ولا يؤثر على العامة، وهناك من يؤثر على كلا الطرفين.. وعليك ألا تستهين بأي شيء أمامك، فربما كانت لديه قدرات خارقة، وسرًا يحتويه بين نفسه، يمكن به أن يكون ذا تأثير عظيم، حتى الضعف والتمسكن وقلة الحيلة والظلم، يمكن أن يكون لها تأثيرها العارم في نفوس الناس وتهييج الجماهير، لو حدث ما يثير مهجهم له.

شيوخ يقعون في الحب

أعرف أناسًا عبروا الخمسين من عمرهم ومنهم من دق أبواب الستين أو فارقها بقليل، وهم يتيهون في وادي العشق والغرام، بل أسمع ذلك الذي يروي لي أخبارهم وهو ساخر منهم منتقص أحوالهم، حينما روى لي الراوي أنباء ما تعلقت به قلوبهم من قصص الحب والهيام!

والذي يتكلم ويلوم، لا يرى من هذا الحال إلا نقصًا وصغارًا أفرزته نفس شيخ يفترض له أن تيأس فيه دواعي الود والرغبة، التي يعتقدها من طبائع الشبان والمراهقين.

فمادام قد شاخ، فقد شاخ قلبه وضمرت نفسه، وماتت الآمال في قلبه، وإذا برز له هذا الرجل وأمثاله من قريب أو بعيد، فإن حماسته لا تتركه حتى يشير إليه قائلا ناعتا: أرأيتم هذا الشيخ الناقص؟

والحق أنني ماعلمت أن القلب يمكن له أن يشيخ، إذ يظل هذا القلب في النفس لا علاقة له بتأثرات الجسد الخارجية، فمهما تعرض الجسد

لعوامل التعرية، فإن القلب في عالم آخر، يظل هو القلب بأشواقه ورغباته وطموحاته.

إن لنا في الشرق ثقافة ترفض هذه المشاعر وتكفر بها، خاصة إذا خاض لجتها الشيوخ لتكون معيبة المعايب.

ولعل هذا المشهد بين رجل عشق وآخر لامه وانتقص منه، هو ما حدث بين العقاد وشاعر الألمان جيتي، فقد كان جيتي في 74 من عمره وأغرم بفتاة في 19 من عمرها وسارع إلى خطبتها، ورفضت الفتاة وأعرضت عنه، فلم تتصور أن يكون فتا أحلامها هذا الكهل العجوز، ولكن جيتي لم يستسلم إذ يلح عليها أن تقبله، وتغرق هي في الرفض، فيستشفع فيها بالأمير، وتصر الفتاة على موقفها، وتنضم إليها أمها، ويجري مجرد اقتراح عله يحل المأساة، وهي أن تمنحه الفتاة قبلة أو قبلتين تسليه ومواساة له، ليرجع إلى بيته طاويا على نفس تجرعت مرارة الخيبة والخسران، وقلب ينفطر من الألم والحزن .

وهنا يفزع أديب العرب وعملاقهم عباس العقاد، الذي لم يعجبه هذا الضعف، ولعله بما شاع في طبيعة مجتمعه، أراد أن يصم الشاعر الألماني

بالنقيصة والمعايب، فعنفه ولامه وذكره بأنه نسي بأن هذه الفتاة تمثل الربيع، بينما هو يمثل الخريف في جفافه ويبسه .

ولم يكن العقاد العظيم وهو في غمرة الاستنكار يدري أنه سيقع فيما وقع فيه ملومه، فقد مرت الأيام ليجد العقاد نفسه، يعشق وهو في الخمسين فتاة صغيرة عنه، وعاودته النوبة وهو في الستين ليعشق ذات العشق، ويلتهب قلبه بذات اللوعة التي أصابت جيتي، ليجد المروءة تفرض على نفسه أن يقدم اعتذارا للشاعر الألماني، فكتب قصيدته انتقام جيتي قال فيها:

يا صديقي القديم اعتذارا** لك من سوء ظنتي وملامي

كنت أنهى عليك حبك في** الستين بنت العشرين فاغفرملامى

و أراني على ملامك من قبل** لحب دون الثمانين دام

فانتظرني فقد يجى اعتذارى** لك طوعا في مقبل الأيـام

إن عشقنا كما عشقت وأوفينا** عليها انتقمت خير انتقـام.

فهل تراك اليوم لو رأيت شيخا يحب، أكنت تنتقصه وتذمه وتعيبه.. ولكن ماذا لو وقعت فيما وقع فيه من بلاء العشق، فهل تكون لديك شجاعة أن تعتذر له كما اعتذر العقاد الشجاع.؟!

الرجل الذي أتعبنا

أنا من هؤلاء الذين يرتعدون من أن يتهمهم قراؤهم أو خصومهم بالتناقض، وأخشى دومًا أن يصفنى أحدهم بهذه الصفة المرذولة، لأنها تعنى لى معان كثيرة وثقيلة، فمنها أننى لا رأي لى، وأننى متقلب، وأننى لا أثبت على مبدأ، وأننى متذبذب، وأننى لا أفهم، وأهمها وأخطرها: أننى منافق.

في أحيان كثيرة، أحسد العميد **طه حسين** -رحمه الله-، ولكننى لا أحسده على نبوغ أدبه، وحسن أسلوبه، ورقى بلاغته، وعميق مجادلاته، وجرأة أفكاره.

وإنما أحسده على شيء ينفر منه كل إنسان سوي الفكر والرأي، لكن العميد وبلا حرج كان يرتضى هذا السلوك لنفسه ونجده فيه صفة بارزة من صفاته، فمما كان يميزهذا الرجل، أنه يقع فيما ينهى عنه، ويفعل ما كان يستعيبه، وإذا هاجمك اليوم على منحى أدبيًا أو طريقًا فكريًا، أو خالفك في قول تتبناه ورأيًا تظهره، فإنه سرعان ما يمر الزمن، حتى تجده يقول بعكس ما كان ينكر عليك بالأمس.

وتحار وتحار في نفسية هذا الرجل وشخصه الغريب، ويغالط عقلك بعضه بعضا حينما تُحكمه في مواقفه وتناقضاته، بل تتعب وأنت تبحث عن غرضه من تقلبه، ومما يعييك أكثر، كيف لهذا الرجل أن يجترئ على صفة التناقض، ويخوض غمارها بكل سهولة وشجاعة، غير عابئ بنقد أو خائف من تعيير، أو متوجس من اتهام، أو مستح من ظنون.

لقد نقد عبقريات العقاد بكل عنف، وكان ذلك بعد موت صاحبها حينما أعلن على الدنيا كلها أنه لم يفهمها.!

كان ذلك حينما التقى أنيس منصور بطه حسين في الحوار التليفزيوني الشهير وقال وقتها: "إنه لم يفهم عبقريات العقاد، ثم سأل أنيسا وقال له: هل تفهم العبقريات؟ فرد أنيس بأنه يفهمها وغيرها من العبقريات، ولكن طه لم يسترح لهذا الرأي، وانزعج الناس يومها من هذا الكلام، واعتبروه تجريحا في العقاد بعد موته، وأن طه لم يكن لبيبا فطنًا بهذا التصريح المثير، وبعضهم ذكر أنه لم يكن يستطيع قول هذا في حياة الكاتب الجبار، وبعض ثالث لم يصدق أن طه لم يفهم العبقريات، وإنما هو نوع من الانتقاص لذكرى الراحل الجسور.

ولكن.. دعك من هذه الحيرة وهذا التقلب في معرفة غرضه ورأيه، لننظر ماذا فعل عامر.! فمن هو عامر؟

لما سمع هذا الكلام عامر ابن أخي الأستاذ العقاد، قام بنشر خطابات تؤكد إعجاب طه حسين بعبقريات العقاد، وذكر أحدهم: أنه

سمع طه حسين يبدي إعجابه بعبقرية عمر بالذات في بيت العقاد بمصر الجديدة، وسمعه يقول: "إننى عندما قرأت عبقرية عمر، أحسست أننى أقرأ عبقرية العقاد!" ورغم هذا النشر المغاير لموقف طه حسين إلا أنه أصر على أن العبقريات بها غموض شديد وأنه لم يفهمها، حتى جاءه حفيده الطالب يومًا وقال له: إذا كنت أنت لم تفهم عبقرية العقاد المقررة علينا هذا العام فكيف نفهمها نحن؟!

ومن الغريب أن طه حسين في عام 1960 كتب تقريرًا عن العقاد أثناء ترشيحه لجائزة الدولة التقديرية قال فيه: "كان للعقاد طريقة انفرد بها وأجاد فيها، وهى أنه يتناول العظيم من جانبه الذي كون عبقريته، وبهذه التراجم استطاع أن يعرض على أبناء هذا الجيل صفحات مشرقة من أمجادنا الخالدة".

وقال: "لقد استطاع أن يلقى على أولئك الأعاظم ضياءً ساطعا بحيث يشعر هذا العصر بقوة عبقريتهم وسلطان أخلاقهم، وبحيث يدرك عظمة الإسلام ورجاله أتم إدراك، فيجد أبناء هذا العصر في مطالعة كتب الأستاذ العقاد قدوة لهم يقتدون بها فيزدادون صلابة في إيمانهم وشدة في قوميتهم" وأنت لا تعرف حقًا ما الذي يدور برأس العميد، هل يتقلب رأيه مع فصول السنة الأربعة، أم أنه ينافق ويخالف، أم أنه يحب افتعال المعارك، أم أنه يمدح صاحبه يومًا، ثم يرتئى بعد زمن أنه لا يستحق المدح فيقلب العاقبة عليه؟! لا تعرف بالتحديد مآرب هذا الرجل، الذي شفعنا له غارته على إمام النثر العربى **المنفلوطى** حينما هجاه وسخر منه في أيام مراهقته، نعم كان طه حسين وقتها شابًا مراهقا، لا هم

له إلا إحداث جلبة وضجة ليتحدث الناس عنه، وهو الغرض الذي اعترف به فيما بعد لابنة **المنفلوطى** وقال لها معتذرا: كنت أهاجم أباك بحثا عن الشهرة، وقال لبعض الصحفيين بعد أربعين سنة مرت: "كنت شابًا يريد الشهرة على حساب كاتب كبير معروف.. فأفرطت وتطرفت في النقد.. أما طول اللسان فكان سببه هو عنف مزاجى ولعل هذا السبب ولا سبب غيره" لقد أصبح طه حسين أديبا يشار إليه بالبنان، وسوف نصاحبه، لتظهر لنا هذه الصفة المحيرة مرة أخرى.!

ومما ذكره **البيومى** أنه حينما ظهرت قصة الشاعر **للمنفلوطى**، كتب الدكتور **منصور فهمى** يمدحها وقال: إن المنفلوطى قد اقتحم سبيلا وعرًا لأن في بلاغة الأصل ما ليس في طاقة معرب أن ينقله، وربما تحمد الجرأة في الصعاب كما حُمدت جرأة **المنفلوطى** في نقل هذا الأثر الرائع، لأنه أدى لنا صورة حية بقلم عربي مبين.

ويبدو أن هذا الإطراء قد أغاظ **طه حسين** ولم يعجبه، فذكر أن المترجم قد شوه ومسخ، وأن **منصور فهمى** يجب ألا يشجع المفسدين والأدعياء، وأنه لا يفهم كيف يمكن أن تتحول المسرحية إلى قصة، وقد عاود الدكتور **منصور فهمى** الكرة، فذكر أنه لا يجد مبررًا للدكتور **طه حسين** حين يذكر المنفلوطى في الأدعياء، وأن وصف الأديب جدير به، وأن تحويل المسرحية إلى قصة بدعة صالحة لا يستهجنها الذوق السليم!. ولكن **طه حسين** أصر على أن المسرحية لا تنقلب إلى قصة، وعد ذلك مسخًا وتشويهًا، وعملا يقترفه الأدعياء! وتمر الأيام لنرى الدكتور طه حسين نفسه يختار مسرحيات فرنسية ليلخصها قصصًا على

صفحات مجلة الهلال، ثم يعمد إلى جمعها تحت عنوان (**صوت باريس**) و(**لحظات**) ومما يذكر أن مجموعتى الدكتور **طه حسين** لم تكرر طبعاتها، ولم تجد معشار ما وجدته قصص **المنفلوطى** من إقبال!

لقد حرم على **المنفلوطى** عملا يراه تشويهًا ومسخًا وادعاء، ثم يحاول أن يقوم بمثله فلا يبلغ قليلا مما يريد؟

ونحن أمام هذا التناقض المريع حائرون في تحليل أبعاد الموقف وتحليل نفسية صاحب الموقف، أيكون في ذلك اعترافا صريحا منه بأنه قد ظلم **المنفلوطى** حين سلك مسلك التلخيص المفيد! كما يكون في ذلك ما ينبىء عن تعمد القدح دون موجب معقول، لا تدري ولا تفهم ولا تستبين، لتظل حائرا تائها شاردا ضالا، مما يفعله الرجل بنا في مواقفه المتناقضة.

أزمة الإهداء

أذكر أن الدنيا قامت ولم تقعد على كاتب من الكتاب، لأن إحدى القارئات ذهبت يوما إلى المكتبة، واشترت كتابا لأحد الأدباء الراحلين، وتصفحته القارئة فوجدت عجبًا في صفحته الأولى، فالكتاب ممهور بإهداء من المؤلف إلى صديقه الكاتب، إذن ما الذي جاء بهذا الكتاب إلى هذه المكتبة ليباع ويعرض للجمهور، لابد له أن يكون بحوزة الصديق الذي يبدو أنه فرط فيه، وأهمل تقدير صاحبه له، فما كان من القارئة إلا نشرت صورة الإهداء في صفحتها الفيسبوكية، وكتبت عليها هذا التعليق: "في ناس ما تستاهلش شوية الحبر اللى انكتب بيهم التوقيع فتفرط في إهداء جميل زي دا.. يا ألف خسارة ع المثقفين"

وهنا تفجر الموقف، وتحول المنشور إلى حرب كبيرة بين المؤيدين والمعارضين، ووجده خصوم الكاتب المذكور سبيلا كبيرا للنيل منه والتنفيس عن حقدهم عليه، وانتظر الجميع أن يرد الكاتب ليشرح الأمر، ويوضح حقيقة اللبس، ولكن رده جاء عنيفًا ناريًا على صفحته، محاط بكثير من الألفاظ الشديدة القاسية، لمن فجروا هذه الأزمة، وأظهروه بمظهر لا يليق، وكان يمكن له بكل سهولة أن يحبط هذا الكيد، لولا أنه سارع إلى تقليم أظفار المنتقدين.

علمت أن الموضوع لم يبدأ بعد، وأنه في سبيله للتضخيم والتهويل، وإثارة الغبار على الكاتب الكبير، خاصة من أولئك المتربصين به من حشرات العلمانيين والملحدين، ممن يكتبون في الصحف ويمتلكون منابر التوجيه والإعلام، ويشرفون على الملاحق الثقافية في كبرى الجرائد، ليكون هذا المسلك طريقة قذرة لتصفية الحساب معه، وعقابه على توجهه القيمى والدينى، وانتصاره للهوية الإسلامية في تصريحاته وكتاباته المعلنة.

لقد حاولت أن أجد أي مبرر للكاتب وعذرًا أحتج به عنه، لكن منشوره العنيف قطع على أي تبرير له، إلا أنه حسب دفاعه.. حريته الشخصية وله أن يفعل ما يشاء، يمكن جدا للكاتب أن يكون له عذره المقبول، لكن الكلمات المهولة التى وجه بها، جعلته يمتطى سيف القلم ويجرح في المعرضين به، بصورة لا تليق، والحق هنا أحق أن يتبع، فالخطأ ابتداء وقع من الصديقة التى نشرت المنشور وأهانت الرجل بكلمات لا تليق.

وفي ظلال هذا المشهد، يمكن لك أن تلمس طبيعة المشهد الثقافي والمسرح الأدبي وكيف يمتلئ بالأحقاد والمكائد التى لا تليق بأناس طرقوا أبواب الثقافة، وفهموا معناها، وتقربوا بها إلى التحضر والرقى، اذهب واقرأ التعليقات لترى ما يندى له الجبين وكأن الرجل قد أجرم في حق الوحى والقرآن.

أتذكر بقوة ما قرأته يوما عن **فولتير**، حينما أهدَى صديقًا من أصدقائه نسخة من كتاب له، وكتب عليه ذلك الإهداء، وبعد زمن وبينما

هو يتجول في سوق الكتب القديمة، رأى نسخة من كتابه هذا معروضة لدى الباعة، فأمسك بها وتصفحها، فإذا بها نفس النسخة التى أهداها إلى صديقه هذا وعليها إهداءه بخط يديه، حزن **فولتير** حزنًا شديدًا، ولكنه لم يفعل كما فعل أعداء الكاتب الذي ذكرنا حديثه في البدء، حينما وجدوها فرصة للتشنيع عليه، فقد كان فولتير مصلحا وفيلسوفا و حكيما ومهذبا، تلك الحكمة التى ظهرت في رد فعله، حينما اشترى هذا الكتاب، وذهب إلى صديقه وأهداه له مرة أخرى، ليُعلمه درسا قويا في الوفاء، واحترام مشاعر الأصدقاء.

الكاتب إبراهيم عيسى سجلت الأحداث أنه واحد من هؤلاء المستهترين بكتب الأصدقاء المهداة إليه، ونفس الصديقة قد أصابنى العجب منها حينما علمت أنها كذلك قد وقع في يديها كتاب لصديق من أصدقاء عيسى قد أهداه إليه وفرط فيه صاحبنا إهمالا واستقلالا.

كنت منذ عامين قد حضرت مجلسا ثقافيا احتفاء بكتاب ألفه أحد الكتاب الكبار، وكان يشاركنا صديق له وهو كاتب مرموق، وقد صحب معه في الأمسية عددًا محدودا من كتب ثلاثة كان قد ألفها، وكان أغلب الحضور من المحبين للاستماع، لكنهم لم يكن فيهم كاتب واحد، تغريه هذه الكتب عند قراءتها ليستخلص منها الكثير من الأفكار.

ربما يحبون القراءة، لكننى حينما قارنتهم بنفسى، رأيت أننى أولى منهم بهذه الهدايا، وحينما بدأ الرجل في توزيع هداياه، صرت في حالة من عدم الاتزان، ولا أعلم وقتها ماذا وكيف سيكون حالي لو أنني لم أصب

نسخا من هذه الهدايا، ولكن الله سلم ونلتها، فاسترحت وهدأت، وانتفعت بهما انتفاعا طيبا.

بدأت مرحلة التأليف والطباعة، منذ أن كنت طالبًا في الكلية، وقد زار المكتبة يوما أحد أساتذتى، ورأى فيها بعض كتبى، فسر لذلك سرورا عظيما، سرور الأستاذ المخلص لتلميذه النجيب، ولما زرته في بيته أخرج لى نسخة باقية من كتاب ألفه وقال لى: أنت أحق بها من غيرك.

لم يكن فرحى بالهدية إلا لأنها نابعة من تقدير كبير من أستاذي لمسته وشعرته، فقد تغيرت نظرته إلى كثيرا بهذه الخطوة.

عرفت الإهداء أول ما عرفته منذ صغري، وعلى ضفاف مكتبة والدي - رحمه الله -، فقد كان فيها كتب ودواوين مهداة إليه من أصحابها الكتاب والشعراء مكتوبة بالقلم الحبر القديم، لكنى لاحظت من بينها ديوانا لشاعر يسمى العوضى الوكيد، وقد أهدى ديوانه، لرجل اسمه نجيب لا أذكر بقية الاسم، ولكن نجيبا هذا فعل شيئا غريبا، إذ كتب تحت إهداء العوضى: وأنا بدوري أهديه إلى صديقى الأديب (**إبراهيم سلامة**) محبة واعتزازا.

فهمت من يومها أنه ليس عيبا أن تهدى إليك الهدية، فتهديها لغيرك.. خاصة إذا رأيت وعلمت أن هذا "الغير" من يمكن له الاستفادة منها أكثر منك.

وعلى جانب آخر، يقف أناس متحسسون من هذا الفعل مستنكرون لحدوثه، لأنهم يقدسون الوفاء والمشاعر إلى حد غزير، ويرون في التفريط في الهدية، تفريطًا في مشاعر من أهداها إليك بحب واعتزاز.

ولعل هنا درسًا دقيقًا أحب التنويه إليه خاصة في وعى كتابنا الصغار، فالكاتب المبتدئ حينما يؤلف كتابًا يشعر بسعادة فائقة، ويتخيل له أن الدنيا كلها تحتفى بتفوقه وتهيم بمنجزه، ويتمنى لو أن الناس قاطبة تحدثت بمؤلفه وأشادوا به في غدوهم ورواحهم، بل يتوق أن يهديه للجميع حتى يصفقوا له على ما أنجز، وهنا تدفعه حماسته أن يهدي كتابه في كثير من الأحيان إلى بعض من لا يستحقه أو يقدره حق قدره، دون التمييز بين طبيعة المهدى إليهم، هل هم ممن يحترمون الثقافة والمعرفة، ويثمنونها ويعشقون سبلها، أم أنهم لا يلقون لها بالا ويرونها عملا مملا تافها لا فائدة منه ولا منفعة؟!

ولو أنه أهداه للصنف الثاني فلا يلومن إلا نفسه، إن حدث بكتابه مالا يرضيه، لأنه لم ينظر إلى التربة الجيدة التى يضع فيها بذرتها اللائقة بها، ومهما يكن من الأشخاص من يعز عليك، فتأكد أنه يفصل بين معزته وتقديره لك، وبين كتابك الذي لا يعنى له أي شيء، بل قد يراه عبئا حملته إياه.

لا مجاملة

النقد الأدبي يمكن له فعلا أن يَحط من قيمة كتاب أو يرفع من مكانته، وهذا النقد قد يرتكز أحيانا على دقائق علمية أو فنية، يمكن أن تكون مسار زلة في الكتاب أو الرواية، لكنها أبدا في أغلب الأحيان لا تهدم أو تمحو ما في الكتاب من إبداع وجهد يشهد له القاصي والداني.

وعلى مؤلف الكتاب أن يدرك دوما أن النقد مجرد رؤى واجتهادات ولفتات ترجع إلى الناقد وذائقته.. ولابد لنفسه أن تتحمل قدرا من التقبل والاستيعاب، دون شعور بالحزن والإحباط والضياع.

بل يدرك دوما أنه لا يوجد كتاب كامل إلا القرآن الكريم، وأن صفة البشر تنطبق على كتبه.

وقد يتعرض الناقد أحيانا لكتاب ألفه صديقه أو شخص يحبه ويقدره ويحترمه، وبينهما مودة وقبول، لكن الأمانة العلمية في ظروفها ومقتضياتها، لا تعترف بهذا الحب، وتتنكر له دوما، فالحب في القلوب والمهج، أما العلم والنقد، فله شأن آخر، لا صلة له به، لأنه يعنى الأمانة، والأمانة مقدسة، فوق كل حب وكل تقدير، ولعله المنهج النبوي في السلوك بين الأشخاص، انصر أخاك ظالما او مظلوما.

حضرت نقدا لكتاب تحت عنوان "حديث الأموات" وكان للناقد الدكتور **أحمد فرحات** آراء قد تبدو صادمة أو محزنة، يمكن أن

يتخيلها السطحيون أنها أهدرت قيمة الكتاب، أو أنها أطاحت بمكانته وجهد صاحبه.. لكن الأمور أبدا لا تسير على هذه الرؤى الهينة، وقد تعجب عندما تعلم أن الدكتور **فرحات** قد قرظ نفس هذا الكتاب الذي انتقده، بمقدمة في طبعته الورقية، وقال فيه كلاما حسنا، وأشاد مقدرا جهد الكاتب ومنهجه وصنيعه. . لكن النقد شيء آخر وصنعة مغايره.

ومن قبل هذه الحادثة حضرت لناقد قدير حول رواية أدبية تناول بعض أفكار الرواية وأحوال أبطالها ووجهات أصحابها، كان النقد يبدو شديدا عنيفا، وربما أحزن أو ضايق مؤلف الرواية، لكن الناقد لم يكن يعنى بحديثه أن يهدم الرواية وقيمتها الأدبية، ولكنها صنعة الأديب مرة ثانية، التى تبحث عن الكمال، وتستلفتها مواطن قد لا تستقيم مع ذائقة الناقد وأفكاره.. وأنا عن نفسى أبتعد كثيرا عن النقد وأصحابه فلا أطيقه ولا أضع نفسى في محله، لأن طاقتى وروحى لا تتقبله، وعلى من يقرأ لي أن يبحث عما يعجبه ويستهويه، وما يلمسه من مضار وهنات فليغفرها لي.

ولو أننى وُضعت في موضع الأديب الذي يتلقى النقد السلبى، فلربما كان أول عمل أفعله حال إيابي إلى البيت، أن أمزق كتابي، أو أمتنع عن الكتابة بعدها قاطبة.

لكن الله – تعالى – قد منحنى فراسة أستطيع التمييز بها بين النقد الهادف، والنقد الحاقد.

وأعود على ما بدأت، فأنا حينما أنقدك وأقسو عليك، فإن ذلك لا يعنى أني أبغضك وأكرهك، أو أرجو تحطيمك وأبغى هلاكك.

وإنما كما قلنا.. تعلو الحقيقة والأمانة العلمية فوق كل اعتبار. فحينما ألف الأستاذ خالد محمد خالد كتابه (من هنا نبدأ) كان رد الشيخ الغزالي عليه عنيفا في كتابه (من هنا نعلم)، وقد تألم منه خالد أشد الإيلام كما ذكر في مذكراته.. وتحرك الدكتور شيخنا العلامة البيومى يتصل بالشيخ الغزالي ويقول له: الأستاذ خالد عزيز علينا، وهو منا ونحن منه، فلابد أن ترفق به، فابتسم الغزالي وقال له: "وهو ما تقول يارجب، ولكن المسألة قد خرجت عن نطاق الأستاذ خالد، حيث تلقفها خصوم الإسلام مصخمين، فنحن نريهم وجه الحق، والحق أحق أن يتبع".

وهكذا لم يعد للحب أي اعتبار، أمام حقائق العلم والفكر، وهو المنهج الذي وضعه من قبل الإمام ابن القيم، في شرحه لكلام الإمام الهَرَوي في مدارك السالكين حين قال: (شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحق أحب إلينا منه، وكل من عدا المعصوم -صلى الله عليه وسلم- مأخوذ مِنْ قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن مَحَامِلِهِ. ثُمَّ نُبين مَا فِيهِ)

المري وجراحي القديمة

تحدثت الدنيا قاطبة عن كلمة المستشار بهاء الدين المري في قضية مقتل الطالبة نيرة أشرف، والتى ظهرت في ثوب أدبي حوى قمة البلاغة والرقى البياني أسلوبا وإلقاء.

ولست أبالغ إن قلت: إن المستشار الأديب استطاع بكلماته وفي أكثر من قضية، أن ينحرف باهتمام الناس بالجريمة كقضية رأي عام، إلى الانشغال بروعة الأديب وكلماته التى امتلأت بالعظة والعبرة والخطاب الملهب لنفوس المجرمين.

المري اليوم وحيد في ميدانه الأدبي، بل يعد الفارس اللوزعى في ساحة الأدب القضائى، والذي افتقدناه منذ زمن كبير وعقود طويلة في مؤلفات وكيل النيابة لتوفيق الحكيم.

ولعلى قد أتيح لى مؤخرا التعرف على المري بدقة، من هو وكيف حاله وما أمره وما عمقه الأدبي وتكوينه الثقافي واللغوي، حينما شاركنا في كتابنا الأخير **رحلة التكوين في حياة المبدعين** فرأيت رحلة ثرية ومليئة بشاب ناهض عشق الأدب رغم اختلاف عمله فيما بعد عن صنعته، لكنه كان ناجحًا ومتفوقا حينما استطاع أن يستثمر هذه المهنة في خدمة الأدب،

أو بصورة أخرى خدمة المهنة بحلية الأدب، مما ظهر تفرده وتميزه، وكان واجهة مشرفة لمصر في نمطها القضائى.

يقولون: إن المري يخيف المحامين، حينما يترافعون أمامه، فيصحح لهم أخطاءهم اللغوية، وهذا شيء مبهر يداوي جرحى القديم، حينما كنت أعمل في المملكة العربية السعودية، وكانت وقتها محاكمة الرئيس الأسبق حسنى مبارك، وكان القاضى وقتها في قمة الانحدار اللغوي، مما سبب لنا أزمة محرجة، وفضيحة مدوية لمصر والمصريين، لقد كان القاضى يخطئ في أبسط الكلمات التعبيرية والبناء اللغوي، وكان فريسة للكتاب السعوديين الذين نهشوا لحمنا وشمتوا فينا، في أكثر من مقال وأكثر من صحيفة، من باب السخرية والاستهزاء، كنت أتابعها بألم وفي كمد وضيق وحزن، ونسى كثير من هؤلاء الكتاب أنها حالة فردية، وأن من علمهم اللغة في مدارسهم معلمون مصريون.

ليظل بهاء الدين المري واجهة مشرفة للقضاء المصري والأدب القضائى.

المري الذي تفخر الدنيا به اليوم، ويتحاكى بأمره القاصى والداني، لابد لنا أن نذكر العلمانيين واليساريين بنقطة رهيبة وكبيرة ودقيقة في حياته، فهذا النموذج المشرف سليل أسرة أزهرية أبا عن جد، ليؤول بنا إلى نتيجة مهمة وهى، أن هذا هو النمط الذي ينتجه ويخرجه الأزهر لو كانوا يفقهون وينصفون، لكن حقدهم اليوم الذي يهدر على الأزهر هو في حقيقته حقد على الإسلام نفسه، حينما يرددون بأفواههم

الكريهة: أن الأزهر مصنع الإرهاب ومناهجه منبت الانحراف والتطرف.. لكن نشأة القاضى الأديب الذي نتباهى به، جاءت ضربة قاصمة لأمثال هؤلاء الرعاع، حينما نبتت عقليته ومواهبه في بيت أزهري.

أعطى بهاء الدين المري درسا مهما لأدباء الجيل، وكأنه يلومهم أو يعاتبهم، حينما أعلن أن تلك المكتبة التى امتلكها بيتهم لوالده وجده الأزهريين، كانت تعج بكتب التراث، وهى التى جذبته بقوة وفتن بها وصارت هواه، ومن هنا كان أثر التراث في تكوين ذائقة بهاء الدين المري الأدبية، ليخرج بهذه الصورة الوضاءة للأديب النابغة، وهى رحلة التكوين الثقافي التى تصفع أدباء لا يعرفون اليوم عن تراثهم شيئا، ولم يقرؤوا فيه حرفا، وكانت كل عنايتهم بكتب الغربيين ورواياتهم.

قدم لنا معالى المستشار دروسا تربوية قوية من خلال حكايته عن رحلته المعرفية، حينما رأت والدته شغفه بالقراءة، فاهتمت به وشجعته ودفعته دفعا لمعارض الكتاب وشراء الكتب، فهل يمكن لكل أم ترى في ولدها بصيصا من هذه الآمال لتشجعه وتحفزه عله يكون اليوم مثل هذه القامة القضائية كما فعلت والدة المري؟

الأدب وحده هو من دعانا اليوم أن نتحدث عن المري، وليس القضاء، وإن كان القضاء له الفضل في إبراز هذه الموهبة الأدبية، لكن الأدب له قصب السبق في تسجيل هذه التجربة الأدبية القضائية.

كان القضاء وعالم الجريمة في الباب الذي استطاع أديبنا أن يسلك فيه مسالكه، فبحكم وظيفته في النيابة والتحقيق، عرضت عليه عشرات القضايا والجرائم والجنايات، ودفعه غرامه الأدبي أن يسجلها ويروي قصصها، لكنه لم يكن مجرد راو وراصد للأحداث، وإنما كانت له تأملاته التى دعته أن يطعم أدبياته بالتأمل الكبير في أسرار النفس وأحوال البشر وظروف الحياة التى جعلته متقلبا في مشاعره بين التأمل والتألم والوعى والتدبر والضحك أحيانا والسخرية، بل دعته هذه الأدوات أن يظهر بالهيئة المطلوبة للأديب الحاذف في فنه.

ولكونه اليوم مستشارا كبيرا، إلا أن أدبه لم يفرض نفسه بقوه عن طريق الموهبة القابعة، فلولا المعارف ولولا المتأملون لقدرات الموهوبين لما استطعنا التعرف على مثل هذا الأديب المرموق.. وهى الفرصة التى يتوق إليها كثير من المبدعين وتنقصهم المعرفة ليعرف الناس أدبهم الحبيس.

القيم في حياة القاضى الأديب شيء واضح في كلماته ومؤلفاته، فلازلنا إلى اليوم نذكر حينما قال لقاتل صهره حرقا بالمنصورة: «فكرت بالقتل وأنت تقرأ القرآن». القرآن إذن منبع الهداية والاستقامة، فهو ليس أديبا على هذا النمط المنحل المنحرف المعادي للقيم والثوابت الدينية، التى حاول بعضهم وفي حقبة من الزمن، ومن بقاياهم المتعفنة إلى اليوم، أن يوهمونا أن التمرد على القيم والثوابت أساس الفكر والإبداع، وكلما كنت ملحدا أو منكرا كلما كنت متنورا ومفكرا عظيما، ثم ما لبس أن دفعه

هواه القيمى، أن يقدم لهم صفعة أخرى حينما كتب كتابه التاريخى: «القضاء في الإسلام».

وأنا لا أعرف إلى اليوم وقد تركت المملكة العربية السعودية منذ سنتين، هل علم كتاب جرائدها بأمر القاضى الأديب؟ وهل كتبوا عنه شيئا مما أبهر الناس من سمو اللغة والتعبير؟ أم أنهم كالذباب لا يحوم إلا حول القذى، أو كالمغرض الذي لا يولع إلا بالتقاط الشبهات والنقائص؟!

الكتاب الذي فقدته

ولأنني قارئ، ولأنني من عشاق الكتب، فقد لا تتعجب حينما تجد نفسي في قمة انزعاجها وحزنها من ضياع كتاب أثير في أعماقها.

نعم كان هناك كتاب قد ارتبطت به كثيرًا منذ يفاعتي، كنت كثير النظر فيه، وكان يبهرني ما فيه من علم، وما يضمه من لمسات ودورس مستفادة لا يقع عليها إلا رجل عاشق فعلا للقرآن، لقد كان هذا الكتاب هو **قصص القرآن** للدكتور محمد بكر إسماعيل -رحمه الله- كنت وقتها أخطب الجمع في المساجد، وأعد دروس العلم، وكان هذا الكتاب يذخر بلفتات نادرة من التأمل القوي في معاني قصص القرآن الكريم.

ولما سافرت للعمل في الخارج، ظل هذا الكتاب في مكتبتي محفوظًا كأحد أهم الكتب المحظية لدي، وفي إحدى الإجازات، لا أعرف ما الذي دفعني إلى هذا؟ فإن نفسي تعتريها بعض اللحظات الخائبة التي لا تعرف كيف تفسرها هل هي من قبيل الكرم أم الحنان؟ أم ماذا لا أعرف؟! دفعتني لحظة من هذه اللحظات، أن أعطي بعض الكتب والمجلدات من مكتبتي لابن أخي آملا أن يقرأ وهو طالب في المرحلة الإعدادية، وأوصيته أن يقرأ فيها، وأن يحافظ عليها، وسعدت أكثر حينما وجدت لديه استعدادا وترحيبا وحماسًا.. وبعد مرور عدد من السنوات سألته أين الكتب التي أعطيتك إياها؟ هل قرأت شيئا منها؟ وكنت أتوقع

أن يحكى لي ويروي، ويناقشنى وينافسنى، فإذا به يقول لي: لقد ضاعت ولا أعرف مكانها، كانت مجلدات فخمة قيمة لها مكانة عندي، لكننى رجعت بالعتب كله على نفسى.

لقد ظننته مثلى حينما كنت في مثل سنه مولعًا بالكتب، وحريصًا على جمعها والاهتمام بقراءتها.. كنا شيئًا مختلفًا، عن أجيال هذا الزمان، الذين يرون الكتب مهزلة وعبئًا ثقيلا يسارعون إلى التخلص منه، ولا شك أننى كلما تذكرت جريمة ابن أخى، وطريقة رده الهادئ البارد وهو يقول: لقد ضاعت منى ولا أدري أين هى؟، يشتعل في أعماقى كمد وغيظ لا حدود له، فأنا لم أسأله على إبرة في كوم من القش كما يقولون، ولكنها كتب ضخمة ومجلدات معتبرة، وليس لي إلا الصبر، كبتُّ ما بي من حنق. كما أنه قضاء الله ولعل الله يعوضنى عما فقدت.

شيء واحد فقط يذكرني بهذا الألم، وذلك حينما أقرأ القرآن الكريم، وتمر بي بعض قصصه، لأتذكر كتاب الدكتور محمد إسماعيل، الذي كان واحدا من هذه الكتب الضائعة، لتبدأ دورة الحزن والأسف على فقده، وهو ما ساقنى منذ أيام أن أبحث عنه في جوجل، حتى وجدته، وكانت فرحتى عظيمة لا تعادلها فرحة، وبدأت أقرأ فيه، وأستعيد ما كان لي معه من أيام وإلهام.

لقد كانت لى مع صاحب هذا الكتاب ذكريات لا تغيب، كان الدكتور محمد بكر إسماعيل أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر، كفيف البصر، وكان نجمه صاعدا في إذاعة القرآن الكريم، وصوته فيها

يتردد صباح مساء، ومنذ هذه الأيام وأنا أتعجب وأقول: من كان يصدق أن ينتهى صوت الدكتور إسماعيل، ويذهب مع ما ذهب من أيام الدنيا، ولا يوجد الآن حتى من أبناء الأزهر نفسه من يعرفه أو يذكره، وقد كان ملء السمع والبصر، مما يقوم به من نشاط وجهد؟!

لم أقنع فقط بكتاب **"قصص الأنبياء"**، وإنما سارعت لأقتنى كتابه المسمى **"الفقه الواضح"** بمجلداته الثلاثة، وكتابا آخر في شرح وصايا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وغيرها من الكتب، وقد سمعته مرة وهو يقارن بين كتابه وكتاب فقه السنة، ويعلى من كتابه على فقه السنة، والحق أن هذا الكتاب كان له الفضل على في إتقان كثير من مسائل الفقه وأحكامه، لسهولة عرضه وشيق بيانه.

لقد كان الدكتور-رحمه الله- أول عالم أزهري أقبل يده، حينما زارنا محاضرًا في بعض مخيمات جامعة الأزهر بمدينة نصر، وقد أبهرتنى رؤيته وهو الشيخ المعمم، حينما التف الطلاب حوله يسألونه ويجيبهم في كثير من المسائل.. رحل الدكتور ولم يعد له صوت مسموع، ولكن كتبه هى الخالدة والباقية التى يذهب ثوابها له -رحمه الله-.. لقد رحل ووافته المنية وهو ساجد في الصلاة، فما أجمله من ختام، وما أروعها من نهاية.

الردود المظلومة

كثير من الكتب التى تحمل الشبهات والاتهام والافتراء، تُشتهر وتذاع وتطبع، ويتم توزيعها ونشرها والتوصية بها، وكأنها الحق الذي لا جدال فيه، ولا قول بعده.. مع أن هذه الكتب قد شمر لها كثير من العلماء والمفكرين، فردوا عليها ونحروا رؤاها، وجعلوها هباء منثورا، بل جعلوا منها أشبه بكومة من الأوراق، تحمل قمامة لا قيمة لها.

ومع هذه الردود العلمية النافذة، التى أفقدت هذه الكتب والأفكار مكانتها، وعرت أصحابها وفضحت منطقهم وعقولهم، يصر قوم آخرون على إعلاء هذه الكتب الزائفة، وترقية أصحابها بعبارات الفكر الفخمة، وأوصاف العبقرية.. ولا شك أنهم فقدوا الصدق والشرف في تعاملهم مع كتب الردود، ويهولهم ما صنعت بكتب الشبهات التى هللوا لها، ويستخدمون أمامها أساليب الرعاع والهمج، ليشوشوا على وجودها.

انظر لكتاب "الشعر الجاهلى" **لطه حسين**، لقد تصدى كثير من الأعلام لما فيه من زيف وأفكار ورؤى قبيحة ضالة، وكذلك كتاب "الإسلام وأصول الحكم المنسوب" **لعلى عبد الرازق**، الذي تصدى له كثير من علماء الأزهر، ومع هذا لا يلتفت إلى هذه الردود المفحمة، وتظل

بعض مؤسسات الدولة إلى هذه اللحظة، تطبع وتشيد بهذه الكتب التى جعلتها ردود العلماء في مقام الأضحوكة المدوية.

ولا تتحمل المؤسسات وحدها نكر الترويج لهذه الافتراءات، بل تتحمله الأمم الجاهلة، التى جعل الجهل منها مرتعا للزيوف وأصحاب الخرافات والأضاليل.

بل نعيب مجتمع المثقفين الذين يللهون ويكبرون لكتب الشبهات، ويسعى جميعهم لاقتنائها، ويتغاضون ويتغافلون عن كتب الردود التى أسقطتها وهزمتها.. ذلك لأن هذه العقول التى تنصب أصحابها في ميادين الثقافة، عقول جاحدة لاتعرف معنى الأمانة العلمية، وموازين الشرف والإنصاف.. بل ترى أحدهم وهو يكابر منتفخا، فيصف كتب الشبهات بأنها الحق الذي بقى، بينما تلاشت كل كتب الخصوم، وتناثرت أدراج الرياح، ليبقى صاحب الشبهة وحده في القمة والسمو.. ولكن ذلك يا سيدي لا لأن صاحب الشبهة على الحق، ولكن لأن وراءه جهات مأجورة، وخصوما مغرضين، يعملون ليل نهار للحفاظ على خرافاته ونشر افترائه.

اليوم ننظر إلى بعض مؤلفات **يوسف زيدان ونصر أبو زيد،** والتى فضحتها وقزمت أصحابها ردود المفكر العملاق **محمد عمارة،** مع هذا يصر بعضهم أن يردد هراء هذه الدعاوى مقتنعا بها مكبرا لأصحابها، مع أنه لو أنصف وقرأ الردود، فسوف يضرب كفا على كف من هذه العقول المتجنية جهلا وسفها.. حتى دور النشر التي لا قيم لها ولا رسالة

غير المال والربح، تسارع لطباعة الكتاب الذي يحمل الشبهة، ولا تطبع الرد عليه.

وحينما هللت الأوساط الثقافية من اليسار والعلمانية لكتاب "من هنا نبدأ" لخالد محمد خالد، لم نسمع منهم أحدًا يذكر رد **الشيخ الغزالي** عليه في كتابه النابغة "من هنا نعلم" وظلوا يهللون حتى جاءتهم الضربة من خالد نفسه، حينما تبرأ من كتابه وأفكاره.

إن المجتمع الجاهل من سماته أنه يغفل عن الحق، ويكبر الغرائب، يروج للأغاليط، ولا يكلف نفسه عناء البحث في الردود التى كشفت الحقيقة ونصرت الصواب.

بدون معلم

يعرف العلم اللدني في أدبيات الصوفية، بأنه العلم الذي يهبه الله للعبد بلا شيخ أو معلم، ويستدلون عليه بقوله -تعالى-: "وعلمناه من لدنا علما".

ولعل هناك صورة أخرى في حياة بعض الأدباء، كانت شبيهة بهذا القذف الإلهى الذي يتحدث عنه الصوفية، فلم يكن لبعض الأدباء شيخ أو معلم يلهمهم العلم غير أنفسهم، وإذا كان أهل الصوفية يجتهدون في العبادة التى تؤهلهم لرتبة العلم اللدني، فقد كان هؤلاء الأدباء يجتهدون في القراءة حتى نالوا في العلم منالا رفيعًا.

عرفت ثلاثة من العمالقة، كان علمهم شاهقًا، وأدبهم فريدًا، وآثارهم غائرة، وكان الواحد منهم بما قدم أمة وحده في دنيا الفكر والأدب، بل كان الثلاثة من الجسارة بما لم يدانيهم أحد، ولا يقاس بحجمهم ند أو منافس.. نعم يخيل إليك من تاريخ هؤلاء العمالقة وذكرياتهم، ومما تركوه تراث حافل جبار، ومن درجات حازت قصب السبق والارتقاء بلا معلم فيه ولا أستاذ، أن حياتهم هذه أسطورة غريبة، وسيرة تستدعى منا كثيرا من الوقوف والتأمل والدراسة، لكنك مهما تدرس وتتأمل، سيكون هناك سر مجهول غير مكشوف، لن تدركه

وسوف تحار فيه كثيرًا، كيف بلغ هؤلاء ما بلغوا دون معلم، وكيف صاروا على هذا التضخم العظيم بلا مرشد، هل يمكن أن يحدث ذلك؟ وكيف؟

لكن واحدا من هؤلاء العمالقة، يجيبنا عن هذا السر العجيب، وراء هذا العلم العصامى المذهل، إنه **الرافعى** الذي اكتفى من التعليم بأوائله فقد نال الكفاءة وثقف نفسه بنفسه ثم هو يقول لنا في بعض مقالاته: " تناولت الأدبيات بنفسى ولم يرشدني في ذلك أستاذ، ولا علمنى إنسان، ومن آتاه الله من فضله استغنى عن المخلوقين".

إنه إذن فضل الله ومنحه ونعمته وخصوصيته لبعض عباده، فقد حفظ الرافعى القرآن وهو فى الحادية عشرة من عمره، ونقل إلى المدارس وبقى فيها إلى الثامنة عشرة، وخرج منها وفي يديه الكفاءة، وأخذ ينمى قواه العقلية والمعرفية بالقراءة والبحث والنظر فى الكتب، حتى كان من شأنه ما كان.. وكذلك كان **محمد فريد وجدي** آية من آيات العصامية، التى شيدته علميا وفكريا وأدبيا، إذ اتجه بنفسه إلى تحصيل معارف كثيرة دون توجيه من أحد، فقد أتقن الفرنسية والعربية فى سن مبكر، وأخذ يقرأ ويقرأ، حتى أصبح بما حصله من المعارف الواسعة عبر القراءة والنظر في التراث، علما من أعلام الشرق والإسلام وفي حياته نرى أن المؤسسة الدينية الرسمية ـالأزهرـ تطلب منه وترجوه أن يرأس ويدير تحرير مجلتها الناطقة باسمها "الأزهر" ثمانية عشر عاما على التوالى، حتى ارتفع بمستواها العلمي.

أما العملاق **العقاد،** فلم يتجاوز المرحلة "الابتدائية" من التعليم، لكنه ثقّف نفسه حتى صار من كبار المفكرين والأدباء.

وُلد **العقاد** في مدينة أسوان، ولم يتعد في دراسته المرحلة الابتدائية، لعدم توافر المدارس من مراحل تعليمية أعلى في أسوان آنذاك، كما أن أسرته الفقيرة لم تتمكن من إرساله إلى القاهرة للدراسة بها كما كان يفعل الأعيان وقتها، ولكنه كان عصامى الفكر مستقل الرأي منذ صباه، فاعتمد على ذكائه الحاد وصبره على التعلم والمعرفة، حتى أصبح صاحب ثقافة موسوعية لا تُضاهى، حيث ثقّف نفسه بنفسه في مجال الأدب العربي، كما أتقن اللغة الإنجليزية من مخالطته للسياح المتوافدين على الأقصر وأسوان، ما مكنه من القراءة والاطلاع على الثقافات الأجنبية من مصادرها الأصلية.

ما ينطق عن الهوى

كتبت في مقال سالف وقلت: فلان لا ينطق عن الهوى.. في حكم بعينه، وليس في كل ما ينطق به لسانه.. كان الوصف محددا في مسألة بعينها وذاتها.. فماذا في ذلك من مغالطات التعبير؟ وقد رأيت معناها في التفسير: أي لا ينطق عن هواه ورأيه واجتهاده.. استعرت فقط هذا المقطع من الآية الكريمة، وليس في ذلك أي تجن على مقام القرآن والنبوة.

إن كل إنسان ينطق بالقرآن والسنة، ويدعو إلى الهدى والرشاد، لا ينطق عن هوى، وهو في هذا شبيه نبيه الكريم إلا أنه لا يوحى إليه.. والكاتب والأديب في أقصى بلاغته، أن يستعير جمله وكلماته من القرآن الكريم، لكن بعض الأصدقاء الأحبة، ربط هذا المقطع بما يليه من الآية المباركة التى تقول: إن هو إلا وحى يوحى.. وهذا ما لم أقله أبدا.

أرجوكم أنا لم أقل عنه: إن هو إلا وحى يوحى، فأخرجوا الشطر الثاني من خيالكم، واجعلوا بينه وبين الشطر الأول حجابا سميكا.! فحينما يصدق أحدهم في دعواه، ويأتي من يدافع عنه فيقول: إنه لا ينطق عن هوى، أي لا يتبع مزاجه وأهواءه والافتراء والكذب والباطل والرأي، فماذا في ذلك من خطأ القول وجرم اللفظ؟

وهل رسولنا الكريم وحده هو الذي لا ينطق عن الهوى؟ إن كل مصلح رباني داعية، يدخل في هذا الإطار، بل هو في فعله يتحلى بأخلاق الرسول -صلى الله عليه وسلم- وصفاته، إلا أنه لا يوحى إليه.

وهل إذا وصمنا شخصا بالرحيم والعظيم والكبير، هل معنى ذلك أننا نتجنى على صفات الألوهية.. حينما أقول: تلك إن قسمة ضيزى، فهل يخرج من يقول: إن هذا الوصف لا ينطبق إلا على هذه القسمة التى وصمها الله سبحانه بالجور؟!

ويحضرني هنا قول ابن الرومى:

لئن أخطأتُ في مدحِـ ** ـك ما أخطأتَ في منعى

لقد أنزلتُ حاجاتي ** بوادٍ غير ذي زرع

وماذا لو قال أحدهم لزواره: ادخلوا قريتى إن شاء الله آمنين.. فهل هنا حرف القرآن الكريم، وتجنى على قول العلى القدير، إني لأراه بلغ الذرى في تعايشه مع القرآن الكريم.. وحتى وإن كان أحدهم في بعض المواقف ينطق أحيانا عن هوى كذب، وفي بعضها يصدق ولا يتبع هواه.. فهل نفزع لو قلنا عنه في الأولى: إنه ينطق عن هواه؟

لكن ماذا لو قلنا له في الثانية: إنه صادق لا ينطق عن الهوى.

إنه الأدب القرآني وتأثيره على مفردات الأديب، وليس هناك مجال لاغتصاب صفات النبوة.

وقف الخطيب الأحمق يوما على المنبر يمدح الملك لاستقباله وتكريمه لطه حسين، فقال الأحمق، لقد لقيه الأعمى فما عبس ولا تولى.. والفرق هائل فهذا ليس اقتباسا بل قول وجرم يحوم حول الكفر والفسق.

إن تفسير الآية الكريمة يخصص نطق النبى -صلى الله عليه وسلم- في القرآن كما أشار المفسرون، وإلا ففى حياته العامة كانت هناك بعض القرارات التى صححها الله -تعالى- ورفض فيها اجتهاد الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -.. فهل نعقل ونتفهم؟

حتى وإن كان من وصفناه بذلك قد أخطأ في اجتهاد فقهى، وهو من المخطئين، فالعبرة ليست في خطئه، وإنما العبرة أن هذا الخطأ لم يكن من عقله وهواه، وإنما من استدلال وحكم وفهم بعينه، لكنه في النهاية لم ينطق عن هوى، وإنما علم.

قال الفقهاء: "يجوز الاستشهاد بآية من القرآن، أو بجزء منها في كلام المتكلم، وهذا يسمى في علوم اللغة والأدب بـ(**الاقتباس**).

كما لا حرج في نثر الكلام على وزن بعض الآيات إذا كان لمقاصد شرعية، مثل الاتعاظ والتدبر، ويكون على وجه التعظيم، أو لتحسين الكلام، وليس على وجه المناظرة والمماثلة.. وأما إن كان في مجال الأساليب المخالفة للعقيدة مثل: الهزل والغزل، أو وقع على سبيل يوحى بالتقليل من شأن القرآن الكريم؛ فهو محرم والله أعلم".

منذ فترة كتبت مقالا شددت فيه النكير على من وصفوا الإحياء بقولهم: "كاد الإحياء أن يكون قرآنا" تبنى كثيرون موقفى الآن في استشهادي بألفاظ هذه الآية، لكننى رفضت رفضا قاطعا أن تكون ثمة جملة توحى أن الإحياء موازيا للقرآن، والمقام هنا يختلف كثيرا.. فرق كبير أن تقتبس ألفاظ القرآن وجملة لا تنافي العقيدة في مسارك الأدبي والتعبيري، وبين تعريض العقيدة ومقام النبوة للتمثيل والتشبيه.

ربما أكون مخطئا لكنى لا أصر على الخطأ إن ظهرت الحجة واستبان الإقناع.. وأنتظر مناقشاتكم، خاصة أهل اللغة والأدب.

وداعًا زمن الحرمان

يكاد المرء يشعر بالحرمان الكئيب، حينما يسمع عن اسم كتاب ولا يعثر عليه، ويظل هذا الضيق متقدًا في الصدر إلى أن ينال الباحث غايته، وقد كان هذا الحرمان في الزمن القديم أشد مرارة قبل ظهور الإنترنت، ولكن مع توافر قنوات البحث اليوم، صار الحصول على كثير مما نتمناه حقيقة مأمولة، لكننا نقرر أن الحرمان قد تشتعل مرارته، لو شحت علينا قنوات الإنترنت بالحصول على ما نريد من الكتب.. وهذا يعنى أن الأمل في الحصول عليه صار ضعيفا معدوما.

أذكر في صباي أننى سمعت عن كتاب (قذائف الحق) للشيخ الغزالى، وذكر لى ابن عمى أن هذا الكتاب في فترة من الفترات المظلمة على مصر، لو أنه ضبط عند شخص ما، فإنه كان كفيلا بدخوله السجن، واتهامه بالقراءة للشيخ الغزالى، وعشت زمنا طويلا أرجو امتلاك هذا الكتاب والحصول عليه، حتى جاءنا هذا الوقت بتقنياته التى مكنتنى من الكتاب وقراءته والسعادة به.

ولا أخفيكم أن قلبى يمتلئ حسدًا من النوع الطيب، على أولئك الذين عثروا على كتاب نادر وجوده، لا أملكه ولا أعرف الطريق لامتلاكه، وكم أتمنى لو تكرموا علينا ونشروه في الإنترنت وجعلوه متاحًا مباحًا للجميع.

قرأت منذ أيام لأستاذنا الإعلامى الكبير أستاذ تهامى منتصر، وكيف أنه عثر على كتاب (الغابة) للصحفى الراحل وجيه أبو ذكري، بعد أن عاش في شارع الصحافة ربع قرن تقريبًا.

لقد أسرعت الخطى إلى جوجل للبحث عن الكتاب ولكن للأسف دون نتيجة، خاصة وأن الاستاذ تهامى تناول الحديث عن الكتاب والعثور عليه بطريقة شوقتنى إليه، والرجاء في العثور عليه حيث قال: "لم أكد أستقر في دار أخبار اليوم حتى عرفت قدماي طريق المكتبة العامرة بالدور الثاني.. وبينما أقلب عثرت على كتاب لم يشتهر كثيرا وقد تعمد الصحفيون تجاهله تماما، رأي الأستاذ أبو ذكري سكان أخبار اليوم - تحديدا - يشبهون كثيرا عوالم الغابة وثمة وجه شبه كبير بين نفوس وسلوك بعض الصحفيين والحيوانات المناظرة في نفس الطباع والسلوك بالغابة ورصد نفوس الزملاء بدقة، تعلق ذهنى بالكتاب لمصداقيته واقترابه من الواقع .. ولكنى اكتشفت بعده أنه الواقع ذاته وأن الغابة لم تحترق ومازالت النفوس والطباع هى هى بل أكثر شراسة" .

ولا أخفيك أنك في كثير من الأحيان يمكن أن تتوق للعثور على كتاب عرفته، وتظل تسأل عنه الأصدقاء والأصحاب، وتنتظر تلك اللحظة التى يجود بها عليك الزمن لامتلاكه، وبعد أن يتحقق أملك، تكتشف ضعف الكتاب وانحدار مستواه، مما يجعلك تندم على شغف وهيام تعلق به قلبك.

حدث هذا معى في كتاب (قصة قلم) لعايدة الشريف عن حياة أبى فهر محمود شاكر، الذي لا يليق أن يكون كتابا يتناول شخصية هذا العملاق.

ولعل قصة كتاب "همع الهوامع" من أروع القصص التى عرفتها في هذا المضمار، حينما كان صديقى طالبا في في قسم اللغة العربية بكلية الآداب، حيث طلب منهم الدكتور بعمل بحث لغوي لا يعتمد على أي مرجع إلا على كتاب اسمه (همع الهوامع في شرح جمع الجوامع) للإمام السيوطى، وظل صديقى يجوب المكتبات ويسأل العلماء والباحثين واللغوين عنه دون أن يجد له أثرًا، فسافر من الشرقية لدار الكتب بالقاهرة، آملا أن يجده، فخاب مسعاه، ذهب إلى دور الثقافة فلم يجد شيئا، فوقع في نفسه أن الدكتور إنما قال لهم اسما وهميًا حتى يتعبهم ويضنيهم، ويمنحهم درجة الرسوب، وفي يوم من الأيام، وبينما صديقى قد استيقظ من نومه في الصباح حتى طلبت منه والدته، أن يذهب ليشتري طعام الإفطار، وذهب صديقى واشترى خبزا وخضرة، حتى استقر عند محل عم سيد ليشتري منه الفول والفلافل، وبينما هو واقف أمامه، يعاني خليطا بين اليقظة والنعاس، كان عم سيد قد وضع كرتونة من الورق، يلف منها قراطيس الفلافل، وفجأة يمسك عم سيد بورقة ليجعل منها قرطاسا، فإذا بهذه الورقة تكشف عن كتاب أصفر قديم، جاء في جملة الورق والمجلات التى تباع لأصحاب هذه المحلات، ومكتوب على هذا الكتاب "همع الهوامع" نظر صاحبنا وأحس أنه في حلم كبير، وأخذ يفرك عينيه ليتأكد أنه يقظان، ولم يجد نفسه إلا وهو

يصرخ بأعلى صوته: استنى ياعم سيد هات الكتاب ده، ففزع عم سيد وقال له: فيه إيه يا أستاذ، خده وخلصنى، كان صديقى مدهوشا من الحدث ولا يكاد يصدق نفسه، أو يستوعب ما حدث، واستطاع في النهاية عمل البحث، ولم يصدق أستاذ المادة نفسه، لأنه هو أيضا كان يعييه الحصول على "همع الهوامع"؛ لكنه أعطاه الدرجة النهائية، بعد أن علم هذه القصة الغريبة في الحصول على الكتاب.

كان هذا في الزمن القديم، وقبل ظهور الإنترنت بهذا التوسع، ولكننا اليوم ما أن تكتب على جوجل "همع الهوامع" حتى يظهر لك كتاب الإمام السيوطى في أكثر من موقع بأبهى الطبعات وأحدث التحقيقات.

الثقافة أم السياسة ؟

لا أخفيكم أننى أشعر في كثير من الأحيان وأنا أمسك بقلمى لأعبر عن فهمى ونظري ورأيى، أننى زعيم وقائد ومنظر يوجه الأمة والعقول والرأي العام لما يراه وينهجه.

وهو شعور منحه القلم لكثير ممن أحبوه وتعلقوا به.

نعم.. فللقلم سلطان عظيم، وتأثير كبير، أقوى من تأثير الساسة والزعماء.. ألا تراهم يحرقون كتب المفكرين ويصادرون أقلامهم، لأنهم يدركون أن الثقافة أقوى وأقدر، وأبلغ نفاذا وتأثيرا في الجماهير.! لقد عبر **فولتير** عن هذا الاحساس قديما حينما قال: «وما عليَّ إذا لم يكن لى صولجان؟ أليس لى قلم؟»

"وقد حق **لفولتير** أن يفاخر بقلمه كما يفاخر الملك بصولجانه؛ لأنه إذا كان للملوك ملك **فلفولتير** ملكوت، وإذا كان لكل ملك رعية مؤلفة من جميع الطبقات **فلفولتير** رعيةٌ راقية، مؤلَّفة من رجال الذهن في جميع أنحاء العالم، وإذا كانت الملوك تتفاضل بالأثر النافع الذي يتركه حكمها في رعاياها فأي ملك استطاع أن يؤثر في أذهان الناس بمقدار ما أثر وما سيؤثر فيها **فولتير**؟!

"أجل، إن هناك ملوكية لا تتبوأ العرش المُذَهَّب، ولا تعقد على الرأس الإكليل المرصَّع، تلك الملوكية تكون بسعة الثقافة التى يشرف صاحبها على العالم، ماضيه ومستقبله، يرسم له مثله العليا ويوجِّه خُطاه نحوها، فقادة العالم الحقيقيون هم فلاسفتُه وعلماؤه الذين يرسلون صوتهم إلينا عبر القرون، فنسمع لهم، ونأتمر بأمرهم."هكذا علق سلامة موسى على قولة **فولتير**.

ومن هنا نشأت المفاضلة بين المثقف والسياسى، وعقدت المقارنة بين السياسة والثقافة.. ولهذا قلت وأقول دوما: الثقافة أقوى من السياسة، والمثقفين لا يقلون مجدا عن السياسيين.

هذا ما ذكرته يوما لصديق حدثنى بائسا حزينا لأنه لم ينل حظه من موقع حزبي كان يرجوه.. وهذه الحقيقة التى نطقتُ بها ليست إفلاسا أو حيلة العاجز، أو محاولة للهروب أمام حظ تعس، أبدا أبدا.. لأنك لو نظرت في عجالة سريعة لكثير من السياسيين الذين انتهى بهم المطاف للعزل والاقصاء عن مناصبهم التى كانوا يتمتعون بها، فولجوا عالم الثقافة وخاضوا تجربة التأليف، لعلمت ذلك، لقد كانوا من قبل يدوي اسمهم في عالم السياسة، وبعد موتهم، لا يتذكر الناس من أمرهم إلا كتبهم، التى خلدت ذكراهم بأقوى مما تذكره السياسة.

انظر **لهيكل باشا**، هل يذكر أحد من الناس موقعه الحزبي أو الوزاري؟

إن ذلك في عالم المجهول، ولكن الناس لا تذكره إلى الآن إلا بـــ "حياة محمد" و"في منزل الوحى" و"الصديق أبو بكر"، وغيرها من آثاره الأدبية، ولولا هذه المؤلفات لتوارى **هيكل باشا** في عالم النسيان.

الأستاذ **العقاد** نفسه، كان سياسيا كبيرًا، بل تساوى رأيه بآراء الزعماء وكانت مقالاته توجه الأحزاب، وتسقط الحكومات، وتعادي القصر والإنجليز، ولكنه هجر السياسة وتوجه للتأليف، فمن أوجد مجد **العقاد**؟ السياسة أم الثقافة.. إن الفكر بلا شك هو صانع مجده ومن جعله عملاقا.

أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة، انتهى به المطاف بكاتب إسلامى بعدما كان اسمه يجلجل الدنيا.. فلم يفقد سلطانه وانتقل من سلطان إلى سلطان أبقى وأدوم.

يذكر مرة أن **الملك فاروق** قد أنعم برئاسة الوزارة لأحدهم، وكان الجميع يتوقع أن المرشح لها هو الدكتور **هيكل** لكنها لم تصبه، وشعر فاروق أن الاختيار قد أحزن هيكل، فأراد أن يواسيه ويسري عنه فقال له: لا تحزن ياباشا فلعل الوزارة تأتيك قريبا.

وهنا رد **هيكل** بما أدهش فاروق وعزز مكانة الثقافة ورفعها فوق عوالم السياسة فقال: يا جلالة الملك إننى حينما أجلس خلف مكتبى لأكتب بقلمي، فإن مناصب الدنيا كلها لا قيمة لها في عيني.

ولعله أراد حتى أن يستقل بهذا القول وظيفة الملك نفسه كملك.

والسياسيون الأذكياء هم من يدقون أبواب الثقافة لعلمهم أنها أدوم من السياسة وأعظم منها مكانة، وأقدر منها على ري أسمائهم لتبقى ملء السمع والبصر مشعة وضيئة براقة.. وقد رأينا المشير **أبو غزالة** يؤلف و**السادات** يؤلف **وأمين هويدي** يؤلف، وغيرهم كثيرون ممن كتبوا مذكراتهم وشهاداتهم كالفريق **الشاذلي**، والمشير **الجمسى**.

الثقافة للسياسى منجاة من الاكتئاب والموت، لأن أمثال هؤلاء تعودوا على سحر الشهرة وتعظيم الناس لهم، والإشارة إليهم بالبنان، وحينما يفقدون كل هذه الامتيازات الفخرية، يبدأ الشعور بالوحشة يداهمهم، وإهمال الناس يحاصرهم، وشبح الاكتئاب يفترسهم، وإذا لم يكن لأحدهم ثقافة يمكن لها أن تبقى على هذه المباهى، فإنه حتما سيكون ضحية للإهمال الذي يغتاله.

وحينما أنعم الملك على **طه حسين** بالباشوية، وجاء أحباؤه لتهنئته، قالوا له في محضر زوجته: بأيهما نناديك، الدكتور طه أم طه باشا؟

وهنا تدخلت زوجته وصرحت بأنها تفضل طه باشا.. وهكذا تتخلى المرأة العجوز عن المركز العلمى الذي أوصل طه للمركز السياسى، والذي بقى منه بعد موته، ولا يذكره الناس إلا بالدكتور طه.. أما طه باشا فلا يعلمها أحد.

لقد سال لعابها وراء المنصب، وكانت على العكس تماما من زوجة الحكيم، تلك المرأة التى كانت ترى المثقف أكبر من السياسى.

عندما ذهب الحكيم، إلى احتفال تم تنظيمه ليتسلم القلادة، قالت له زوجته: احذر أن تحنى رأسك أمام عبد الناصر، وأنت تتسلم القلادة، كررتها أمامه أكثر من مرة فسألها الحكيم: وكيف لا أنحنى برأسى أمامه، وهو رئيس الجمهورية، فقالت له في ثقة: أنت في عيوني أعظم من الرئيس، أنت أهم رجل في الدنيا، ولا تنس نصيحتى لك عندما ينادون على اسمك.

بل جلست أمام التليفزيون تنتظر اللحظة التاريخية، اقترب الحكيم، من عبد الناصر، في خطوات ثابتة ووقف أمامه كالصقر، لم تنخفض رأسه، وصافح الرئيس، وقامته مرتفعة ثم تسلم القلادة، ومازالت قامته مشدودة حتى عاد إلى مقعده وسط تصفيق الحاضرين.

وقالت زوجة الحكيم: "تابعته في التليفزيون ولاحظت أنه لم ينحن برأسه أمام الرئيس، وسعدت بذلك أكثر مما سعدت بالوسام".

يا أرض انشقي وابلعيني

زار الدكتور **شوقى** ضيف أستاذه العميد **طه حسين**، يومًا ما ليقرأ عليه بعض الفصول في رسالته للماجستير، فسأله الدكتور **طه** عن رأيه في المحاضرة التى ألقاها في الجامعة الأمريكية؟ فقال التلميذ: كانت محاضرة طيبة، فقال **طه** متعجبًا: طيبة فقط؟ فقال التلميذ: كل ما تلقيه من محاضرات رائع، فاستغرق **طه حسين** فى الضحك طويلا واضعا إحدى يديه على الأخرى، ثم قال له: ما رأيك في أننى ظللت أعد هذه المحاضرة في نحو شهر، أقرأ لها كتبا مختلفة حتى استوعبت موضوعها، وألقيت فيه المحاضرة التى سمعتها.

خجل التلميذ **شوقى** ضيف من أستاذه لأنه لم يكن يتوقع أو يطرأ على باله أن يُعنى هذا الأديب الكبير بالتحضير والإعداد لمحاضرته كل هذه العناية، وتعلم الدكتور **شوقى** هذا الدرس جيدًا حين قال: "كان ذلك درسا رائعا تعلمت منه أنه لا يوجد عمل أدبى محاضرة أو غير محاضرة جدير بالتقدير مهما صغر حجمه دون أن يكلف صاحبه مؤونة مجهدة ومشقة متعبة، حتى **طه حسين** صاحب البيان الساحر الذى كان يخلب به مستمعيه، يتحمل جهدا مضنيا لا في بحوثه الطويلة وكتبه فحسب، بل أيضا في محاضراته"

وأقول أنا: "إن ذلك من ذكاء **طه**، لأنه يحافظ على اسمه ومكانته التى نالها، فليس الأمر بمهارة الحديث وحده، وما يرتكن عليه من بيان وإلقاء، وإنما ابتداء بالعلم العميق الذي يستند إلى اطلاع وتحضير وإعداد.. لقد ضقت كثيرًا ببعض المحبين الذين إذا ما رأونى في محفل من المحافل أو ندوة من الندوات، وخلت بعض الفرص للحديث، إذا بهم يدعوننى لأعتلى المنصة متحدثا، دون حساب أو ترتيب أو تحضير، أو إعداد نفسى لمثل هذا الموقف، مما أجد نفسى معه في حرج شديد، وموقف لا أحسد عليه.

أذكر أننى دعيت مرة للحديث في محفل كنت مدعوًا فيه للاستماع فقط، ولما سمعت المذياع يهتف باسمى، وقع قلبى في قدمى كما يقولون، وقلت في نفسي: (يا أرض انشقى وابلعينى) ماذا أقول وكيف أتكلم بل كيف أقف وأنظر إلى الناس وأنا لم أعد نفسى للأمر؟! وخرجت للحديث ووالله لا أدري ماذا قلت، لكننى أذكر أننى أتيت بكلمة من الشرق وكلمة من الغرب في وقت قصير مر على وكأنه عمر طويل من الزمن.

إن إشكالية كثير من العقول والأفهام تتصور أنهم حينما يروننى أخطب وأرتدي المنصات الأدبية والفكرية، وأننى أكتب المقالات وأؤلف الكتب، أننى قد وصلت للدرجة التى أستغنى فيها عن الإعداد والتحضير، وهذا خطأ فاحش، فأي عالم وأي متحدث وأي مفكر أو أديب أو ناقد، لابد له من التحضير مهما علا كعبه في العلم والدرس، لابد من التحضير حتى يستطيع أن يقدم ما يليق باسمه ومكانته.. أما المفاجآت المباغتة باعتلاء المنصات فهي عندي أبشع المواقف، وأسوأ

المفاجآت، وبعضهم يتخيل بدعوتى للمنصة بصورة مباغتة للحديث، أنه هنا يكرمنى، والحق أنه يضرنى ويحرجنى.

أذكر مرة أننى سمعت الأستاذ الدكتور **محمود عمارة** يتحدث أمامى عن هذه المشكلة التى تقابله، أنه لابد له من التحضير للموقف والندوة والخطبة، وأن بعض الناس يستدعونه فجأة للخطاب فيشق ذلك عليه، يقول هذا وهو أحد أعلام الدعوة في عصرنا الحديث، ويؤكد على ضرورة التحضير وأهميته، فليس المرء عالمًا بكل شىء، وليس في جوفه معين كل العلوم، ولا هو كالراديو الذي ما إن ضغطت زره حتى ينطق صوته، في أي وقت تريد وأي مناسبة تشاء.

وحينما كنت أرتاد الصالونات الأدبية في الفترة الماضية، لمست شيئا خطيرا جدا، وهو أن بعض النقاد الكبار لا يقرؤون العمل، ويرون قراءته مضيعة للوقت، وأنهم منشغلون بما هو أهم، وأذكر أننى كنت يومًا مدعوًا للمداخلة، وكان أحد النقاد الكبار يسبقنا في الحديث، فقلت: أستمع لأرى كيف يتناول العمل وهل سيقف على ما وقفت عليه أم لا؟

استمعت إلى الناقد، فلم أجد شيئا يقوله، وخيل إلى أنه قرأ المقدمة، وعرف موضوع الكتاب، ونظر إلى الفهرس فقط، وإذا به ينشئ محاضرة خطابية بأسلوب بليغ أخاذ حول الموضوع، بجانب مدحه للمؤلف بأنه مبدع وعبقري، الحقيقة أعجبنى كلامه وأسلوبه، ولكننى بعد انتهائه، سألت نفسى: ماذا قال الرجل؟ وأين نقده للكتاب؟ إنه لم يقل أي شيء، إنه لم يقرأ أي شيء.!

ورأيت بعض هؤلاء النقاد أيضا يعتمد على أكلشيهات ثابتة، ومصطلحات براقة، يستخدمها في كل ندوة وإطلالة نقدية، وتوقن تماما أنه لم يقرأ من الرواية أو الكتاب إلا صفحة واحدة أو صفحتين، وأنه اعتمد على ثقافته في البقية، إذ عرف اتجاه الرواية، وأمعن في الحديث عنه.

علمت أن أحد الأساتذة الكبار، الذين كانوا يناقشون الرسائل الجامعية، قد سأله يوما أحد الأساتذة: يا أستاذنا هل تقرأ هذه الرسائل، فقال له: أعلم جيدا أن هذه الرسائل تصيب بالجهل من قرأها، فقال له كيف تناقشها إذن؟ قال له: أنظر في بعض صفحاتها، وآخذ فكرة عامة من الباحث وهو يوصلنى بالسيارة، حتى أفهم محتواها وأتكلم بها عندي من مخزون.! وهذا لا شك أعده خيانة علمية، فلابد من التحضير والقراءة حتى يؤدي المرء واجبه ويوجه الباحث ويفيده.

وأذكر حينما كنت في المملكة العربية السعودية، وقد زارها الدكتور **أحمد زويل**، وأقيم له محفل كبير ليلقى فيه كلمة، وفي اليوم التالى خرجت الصحف السعودية تنتقد الدكتور **زويل** وأكثر من كاتب سعودي عقبوا على كلمته في نقد لاذع، لأنه لم يقدم شيئا باهرا في كلمته، وتخيلوا أن الرجل كان سيدهشهم بالحديث عن المعجزات العلمية لكنه خيب آمالهم، وكان ذلك سبيلا للحط من مكانة **زويل** وهو الأمر الذي لا شك يستهويهم جدا وبقوة، ويبدو لي والله أعلم أن الدكتور **زويل لم** يأخذ الأمر على ما كانوا يأملون، إذ خيل إليه أنه ربما يتكلم كلمة خفيفة في محفل تكريم، فهو لم يسافر ليلقى محاضرة علمية، أو ليعقد ندوة حول اكتشاف علمي، لكن القوم كان انطباعهم على هذا النحو المشين.!

وختاما أقول: إذا أردت أن تضايقني وتضعني في موقف محرج، فما عليك حين تراني بين الجمهور في ندوة أو محاضرة من المستمعين، إلا وتنادي علي وتدعوني للحديث، لتكون ساعتها فعلا قد نلت مني أحسن منال، واستطعت أن تصيبني بحرج لا مثيل له، لأني لم أحضر شيئا لأقوله.

مذكرات مجهولة

مذكرات الفلاسفة والأدباء تملأ الدنيا ويعرفها الجميع وتدرس في المدارس.. أما مذكرات الإسلاميين من الدعاة والأئمة والعلماء فمجهولة مع أنها تفوق مذكرات الكثيرين في متعتها وبيانها ورحلة كفاحها... وقد وجب على الإسلاميين أن يركزوا على نشر مذكرات أعلام الدعوة ليتعرف الجمهور القارئ على نضال هؤلاء الأبطال ... إن **طه حسين** ألف قصة حياته الأيام وحينما قرأت قصة حياة الشيخ كشك رأيت في قصته ما يفوق حياة **طه حسين** بما كتب في الأيام..

هناك تقصير كبير، وبخس لحق هؤلاء الأعلام الذين وجب الوفاء لهم بإحياء تراثهم بين القارئين.. أين تأتي مذكرات ثروت أباظة وأحمد أمين وأبو حديد وبدوي والمسيري وسلامة موسى وزكى مبارك ولويس عوض، أمام مذكرات القرضاوي والكيلانى وأنور الجندي وعلى الطنطاوي وعمر التلمسانى وعبد الحليم محمود وخالد محمد خالد.

إن إحياء هذه الصور المليئة بالكفاح، ضرورة مهمة ليستلهم الجيل معانى الرجولة الحقة فى دنيا هؤلاء الأعلام.

والداعية الفذ الذي يرحل عن الحياة دون أن يسجل مشاهد حياته وما فيها من محن.. ربما قصر كثيرا وغفل عن واجب مهم ودور كبير كان يمكن أن يؤثر به في الأجيال لو أنه سف أيامه وسطر أمجاده.

لقد بدأ **الشيخ الغزالي** في التسجيل لأيامه فلم يكتب إلى بضع صفحات لكنها جمعت المتعة والألم.. المتعة من أحداث حياة هذا العملاق الكبير، والندم الكبير لصغر حجمها وضآلة سطورها.

نحن لا نهضم هؤلاء الناس حقهم ونؤمن بأن لكل إنسان تجربته المفيدة في الحياة، ولكن المرء يحزن كثيرا حينما يرى تراث الأبطال الكبار مجهول مضمور لا يعرفه القراء.. فرق كبير بين من كان يتباهى في مذكراته بأنه كان يذهب لبيوت الدعارة المرخصة ليستمتع بصور النساء وفروجهن، وبين أبطال حملوا السلاح لصد المستعمرين والمحتلين أو زجوا في السجون حسبة لله تعالى.

فرق كبير بين رجل قضى حياته ينافح ويصارح لاهثا وراء المناصب والمراكز والتى يحقق في سبيلها الإنجازات، وبين عظيم كانت له عين تسهر في سبيل الله، أو يحرم نفسه متعة الدنيا من أجل الأخرين...

حيا الله المستشار **العقيل** حينما بدأ يسجل في كتابه الناصع الذي جعله تحت عنوان "أعلام الدعوة المعاصرة".. لقد أرخ للكثيريين من الأبطال والعلماء والدعاة الذين رحلوا ولم يسجلوا آثارهم وحياتهم احتسابا للأجر عند الله.

إن صاحب مذكرات الدعوة والداعية كان أفطن وأدرك من كثير من أتباعه حينما كتب مذكراته... وكان من المنتظر أن يقلدوه في هذا المنحى وقد كانوا يقلدونه في كل شيء، إلا أن مفهوم الرياء والخوف من ابتغاء غير وجه الله دفعهم ليرموا بذكرياتهم في دنيا النسيان.. ليحرمونا من كثير من المتعة والمعرفة والإفادة والدراية الدقيقة بالتاريخ.

نحن دوما نعلن انبهارنا برحلة الأيام قصة حياة عميد الأدب العربي طه حسين، وكيف استطاع أن يقهر الظلام وينال العلا بالعلم والتعلم، لقد حكى طه كثيرا من التحديات التى واجهته، وكانت غلبته لها تشبه المعجزات، وتركت دائما في أذهاننا ذلك السؤال العجيب، كيف استطاع هذا الفتى الضرير الفقير العاجز، أن يصير بالكفاح والجهاد من عمالقة الأدب العربى؟!

ولأن الجهات الرسمية تحتفى بذكرى العميد، فقد كان ذلك الانبهار الكبير بهذه السيرة الذاتية للرجل المعجزة، وقد يخيل إليك أنه وحيد فى هذا الميدان، ولكننى منذ فترة طويلة قدر لى الاطلاع على مذكرات الشيخ عبد الحميد كشك، ذلك الخطيب والداعية المصري الأشهر فى العالم الإسلامى، فرأيت ما يثير العجب، فرحلته أشد دهشة من رحلة طه حسين، وفيها من وجوه الأعجاز ما يجعلك تؤمن أن العميد لم يكن وحده في هذا الميدان، وأنه لم يكن وحده من قهر الظلام وتغلب عليه.

ولكن لأن الشيخ كشف كان ينتهج المعارضة في خطبه وحياته، فلم يجد من يحتفى بسيرته الذاتية، مع أنها لو جسدت مسلسلا أو فيلما سينمائيا، لكانت في روعتها أبلغ من مسلسل الأيام، لما عاناه صاحبها من الظلم والكفاح والعنت والبلاء الذي قابله بصبر وثبات حتى صار داعية من أعظم الدعاة الذين تركوا بصماتهم فى الشرق والغرب.

أرجوك لا تلمني

أعترف أن أكثر طائفة أبغضهم ولا أحبهم ولا أنسجم معهم، أولئك الذين يعشقون اللوم والتأنيب، ولا يفسحون الطريق للتسامح والتغافل والنسيان والتعمية عن كثير من الأخطاء والهنات.

أكثر ما يفسد علاقتى بك أن تكون من أهل اللوم وعشاق التقريع، إنها صفة لا تبقى في نفسى إليك أي مودة أو قربى أو وصال.

إننى أفر من أصحاب هذه الطباع فرار السليم من الأجرب.

وإذا أردت أن تتسع معك دائرة اعترافي فأقول لك:

إن المرأة قد تكون في عينى فاتنة جميلة، ولكن هذا الجمال يتبدد في روعى ويتحول هو وصاحبته إلى كابوس مزعج لا أطيقه ولا أتحمله إذا كانت لوامة أنابة.. إننى ألعن هذا الجمال ولا تستطيع صاحبته أن يكون لها في قلبى مكان أو إعجاب.. وعلى العكس ما أروع المرأة حينما تتجمل بالصفح والعفو والتغافل، ما أذكاها حينما عرفت المعنى الحقيقى لجمال المرأة! قد أكون مخطئا لكن اللوم عندي خطيئة.. أرجوك لا تلمني.

أنا ممن يكرهون اللوم جدًا، خاصة إذا كان من أمامى يعرف شعوري بالخطأ وإحساسى بالتقصير، ومع هذا يمعن ولا يكف عن تقريعى بلومه.

هل يمكن لى أن أصارحك، بأن هذه النوعية من الناس مريضة بعقدة نفسية.. إذا جاءتهم فرصة لينفسوا فيها عن عقدتهم، فإنهم لا يتأخرون ولا يتوانون، بل يسارعون لاغتنامها وإعادتها وترديدها، وربما يعيشون عليها يومًا أو يومين او شهرًا أو عامًا، فقد تعودوا تصيد الأخطاء واللوم عليها لأن هذا العمل يداوي في دواخلهم شعورا مرا بالنقص.

إنه المعنى الكبير الذي فطن إليه الشاعر العربي في قوله:

وكنتُ إذا الصَّديقُ أراد غيظى

وأشرفنى على حنق بريقى

غفرتُ ذنوبهُ وصفحتُ عنهُ

مخافةَ أن أعيش بلا صديق

أذكر وأنا صغير وفي حديقة بيتنا، وكان لى عم أكبر من والدي يمتهن الفلاحة، وكنت وإخوتى نذهب معه لنعاونه في الحقل، وكان هناك نبات يزرعه الفلاحون كثيرًا اسمه -التيل- إذا كبر يحصدونه ويجمعونه ويظل في الشمس حتى يجف ويسلخون جلدته وأليافه ويصنعون منها أحبالًا أو أصفادًا يقيدون بها الماشية، ويستعينون به في كثير من أغراض الفلاحة.. كنت وقتها صبيًّا صغيرًا، ويومًا ما وجدت في حديقة البيت -

علبة كبريت- فأخذت ألهو بأعوادها، وأمسك بعض القش وأشعل فيه النار، ثم أطفئه سريعا حتى لا يتفاقم أمرها.. وبينما أنا أمر على هذا – التيل – الذي كان محصولًا كبيرًا، جال في خاطري أن أشعل النار في عود منه ثم أطفئه.

وما أن أشعلت طرف العود حتى وجدت النار في سرعة البرق تنتقل إلى الطرف الآخر، وأخذت تلتهم كل المحصول في توحش وتوهج، وشبت النار عالية تنبئ عن حريق عظيم، لقد خرج الأمر من يدي، وأنا واقف مذهول لا أدري ماذا حدث؟، ألهذه الدرجة يكون هذا التيل أشد اشتعالًا من البنزين والجاز، ما هذا السحر العجيب؟ وجرى الناس وخرج إخوتي وأبناء عمي والجيران وانقلبت الدنيا رأسا على عقب، وأيقنت أنني سأنال عقابًا عظيمًا، وبالفعل تم العقاب، فما أن أمسك بي والدي ليلًا حتى أشبعني بالعصا ضربًا لا أنساه.. لكن الغريب في الأمر.. أن عمي وهو الفلاح البسيط، لم يتكلم معي ولو بحرف واحد في الأمر، ومع كونه أكثر المتضررين وأوحدهم من الحريق الذي أفقده التيل، إلا أنه تعامل معي وكأن شيئا لم يحدث أبدًا.

كانت هذه الحادثة في الثمانينات، ومازلت أذكرها، وعلى قدر ما أذكر العقاب، اذكر تصرف هذا العم البسيط في حاله العظيم في حنانه ونفسه، فقد كان كثيرًا ما يتغافل وينسى ويحذف المنغصات من حياته.. إنه يعرف جيدًا أنني أشعر بحرج من فعلتي، ولكنه كظم غيظه حتى لا يزعجني أو يضايقني ولو بمجرد اللوم والتأنيب.

الصحفى الكبير الاستاذ **جمال بدوي** كان يحكى عن بداياته العملية في بلاط صاحبة الجلالة، وتدريبه في "أخبار اليوم" مع الأستاذ **مصطفى أمين**، وتحت إشراف الصحفى الكبير **عبد السلام داوود**، كان بدوي طالبا في الجامعة، وكلفوه أن ينقل أخبارها، وكانت هناك علاقة عاطفية معروفة بين أستاذ وطالبة، وسارع أحد أصدقاء **بدوي** أن يملى عليه خبر خطبتهما، وما أن نشر الخبر، حتى سارع الطرفان لتكذيبه، إذ لم تحدث أية خطوبة

وذهب أهل الفتاة إلى الأستاذ **مصطفى أمين** وهم غاضبون مما تسبب في حرج شديد لإدارة الصحيفة، فاضطرت إلى نشر تكذيب للنبأ.. شعر **جمال** بالحسرة والفشل في بداياته الصحفية، وقرر الامتناع عن الذهاب إلى "أخبار اليوم" حتى يتجنب ما ينتظره من لوم وتقريع.

لقد مرت عليه أيام كئيبة كان خلالها يستطلع الموقف من زملائه في الصحيفة، فكانوا يبلغونه أن هذا الموضوع لم يطرح على الإطلاق خلال الاجتماعات التى يعقدها الأستاذ **عبد السلام داود**، وأبلغوه أن الرجل يسأل عنه ويرجو عودته للقسم، وبالفعل شعر **بدوي** بنوع من الاطمئنان وعاد إلى الصحيفة يستأنف نشاطه.. وكان من المدهش أنه لم يسمع من الأستاذ **داود** أي إشارة للخطأ الذي تسبب فيه **بدوي**، والحرج الرهيب الذي سببه للجريدة .

ويوما ما قدم **بدوي** مجموعة أخبار للأستاذ **عبد السلام** فأخذ يناقشه في خبر منها ومدى مصداقيته، ولما حاول أن يدلل على سلامة

الخبر، وقف الأستاذ **داود** ليوجه إلى تلميذه كلامًا مباشرًا عن الخبر المكذوب.. قال له: "إنني واثق أنك تورطت فيها دون أن تتأكد من صحته، ربما لأنك وثقت في مصدره، أو لأنك رأيت فيه خبرًا تافهًا لا يستحق التمحيص.

وهذه غلطة كبرى لأن معظم النار من مستصغر الشرر، وأنت لا تتصور ما سببه هذا الخبر من هلع لأهل الفتاة مما اضطرنا إلى نشر تكذيب حتى نعالج الموقف والاعتذار عما لحق بهم من إيذاء أمام المجتمع".. قال **بدوي**: "أنا أعترف بخطأي وآثرت الهروب ولكنك ألححت في عودتي ولم تفاتحني في الموضوع إلا بعد مرور وقت طويل".

قال **داود**: "نعم فعلت ذلك لأنني توسمت فيك أن تكون صحفيًّا مرموقًا، وكنت أعرف مدى حساسيتك المفرطة، ولو أنني تسرعت في محاسبتك، فسوف تهرب ولن تعود، وأكون بذلك قد حرمتك من أمنيتك وطموحك، لقد آثرت التريث حتى لا أفقدك".

وأنا كذلك إذا أردت أن تفقدني صديقا فما عليك إلا أن تكثر لومي.. ساعتها لن تراني أبدًا.

طلاب دار العلوم كفار!

عرفت علماء وأساتذة كبارا من خريجى دار العلوم، وهم يعتزون ببدئهم الأزهري، حيث تلقوا تعليمهم الأول على مناهج الأزهر وتشربوا روحه وطريقته، قبل أن يُكتب لهم النبوغ في أروقة دار العلوم، لكنهم بين الحين والحين، لا يغمطون أزهريتهم أبدا ولا يخذلون أثرها فيهم.. وسبحان الله فقد كان من هؤلاء العالم المؤرخ الكبير دكتور **أحمد شلبى**، والمفكر الضخم العملاق **محمد عمارة** رحمهما الله.

وفي الوقت الذي يظهر فيه أمثال هؤلاء الأبرار الأوفياء، ظهر نمط آخر من الدارسين والمتخرجين، خاصة من أجيال دار العلوم، وهم يستقلون بالأزهر، ويستهينون بمقامه وقدره وأثره وقيمته، فهم لا يرونه على شيء، ومحال له أن يطال من النبوغ في علوم العربية والدين، كما طالت دار العلوم.. وهذه الاستهانة للأسف لم يتول كبرها تلاميذ صغار أو طلبة يفتقدون للحكمة والرشد والتقويم السليم، وإنما قام واستشاط بزعقها أساتذة ومحاضرون في عرين الدار.. وهو مما يؤسف له.

منذ أيام يسيرة تحدثت مع الدكتور **أحمد فرحات** عن شخصية الدكتور **محمد رجب البيومى**، الذي لم يقرأ له كثيرا، وقد تعجبت من ذلك أن يهمل جامعى حامل للدكتوراه في ميدان اللغة والأدب قامة عظمى مثل الدكتور **البيومى** الذي ضرب في كل فن، وكانت له جهوده الهائلة في النقد والشعر واللغة والفكر والتاريخ، مما حدا بالبعض أن

ينادي به عميدا للأدب العربي المعاصر.. كانت صراحة الدكتور **فرحات** كاشفة ليبرئ ساحته، ويلقى باللوم على أساتذته في دار العلوم وهم يصورون له ولأترابه أن الأزهر قبلة الجهل والتخلف، وأن القراءة للأزهريين لا قيمة لها ومضيعة للوقت، فاللغة الحقة في دار العلوم، والنقد الحقيقى في دار العلوم، حتى علوم الشريعة في دار العلوم.

وأمام انطباع الدكتور **فرحات،** أذكر رؤية أخرى لأخى الدكتورعصام أبو زيد الدرعمى المتفوق وهو يحدثنى منبهرا بالشيخ الشعراوي لغويا، وكيف أن في دار العلوم شيوخًا كبارًا يعدونه أعلم الناس باللغة.. وتلك سماحة بادية وإنصاف كريم، وإحقاق للحق في مكانه.. ومن قبله كان الدكتور **عبد اللطيف أبو همام،** والذي سارع لكتابة مقالة في الأخبار يقرض بها ويحتفى بالتحقيق الذي أصدره الأزهري النابغة، وعمدة محققى العصر، فضيلة الدكتور **النبوي شعلان،** في تحقيقه لكتاب العمدة **لابن رشيق،** وعنوان المقالة بقوله: العمدة يحقق العمدة**!** والدراعمة جميعا يعرفون من هو **أبو همام،** فهو لا شك من مفاخرهم الوضيئة، وهو بعد بهذه الشهادة، يسجل اسمه في سجل الأنقياء المنصفين، ولم لا.. و**النبوي** قد تفرد بما صنع وسما بما فعل، وأتى بما يعجز عنه الكثيرون من فطاحل العلم والتحقيق، فقد أنفق في هذا العمل السادس عشر عاما من حياته.. بل كان بعض الدراعمة يسوؤهم أن يُهمل ذكره، حتى صارحه يوما بقوله: مشكلتك يا دكتور **نبوي** أنك أزهري، ولو أن مثلك في دار العلوم، لسارت بصيتك الركبان.

القضية إذن قد ترجع أحيانا إلى الحفاوة الإعلامية، التى تتنكر كثيرا للأزهر، نظرا لهويته الدينية، وغلبته الإسلامية، وترحب بدار

العلوم ورموزها، لتحررها من هذا الجانب بعض الشيء، خلافا لما عليه الأزهر ورجاله.. حتى في مجال الشريعة والعلوم الإسلامية، رأيت من خريجى دار العلوم، من يتنكر للأزهر والأزهريين، ليثبت تفوق دار العلوم حتى في هذا الميدان، الذي يعد الأزهر معقله وحصنه، وقد رأيت بعضهم، وهو يذكر أستاذه **الجليند**، ويطاول به عنان السماء، زاعما أن سموه العلمى الشرعى لم يبلغه أحد من الأزهريين! وهذا لا شك تجاوز للحق تفجرت به عصبية شائطة، أو عاطفة عمياء.. بل هى روح كئيبة غريبة، تجسد لى ما كان يحدث قديما من صراع المذاهب الفقهية، وتعصب كل فريق لمذهبه.. وقد قيل قديما: يغار العلماء من بعضهم كغيرة التيوس في حظائرها.

التحرش بين الأزهر ودار العلوم بدأ قديما منذ تأسيسها، حينما اعتمدت الجامعة على الأزهر والأزهريين لتدريس الجانب الدينى واللغوي في دار العلوم وهيأت له أسباب إدارتها، حتى عدت دار العلوم في هذا الوقت، فرعا من الأزهر الشريف، ولكن بعض الطلاب المتمردين على الأزهر، قرروا الخروج عن سطوته، واستبدلوا العمامة بالبدلة والطربوش، تأسيا بطه حسين الأزهري، الذي خلع عمامته وارتدى الزي الإفرنجى، وقرر الطلاب تنظيم مسيرة تطالب بتغيير الزي الأزهري المفروض عليهم والتجرد منه، وقام الأزهر برفض مطالب الطلاب، حتى وصل الأمر بالشيخ **محمد أبو الفضل الجيزاوي** مفتى مملكة مصر في ذلك الوقت، أن يصدر فتوى بتكفير من يرتدي الزي الإفرنجي من طلاب دار العلوم، بعد حرب فكرية دامت ثلاث سنوات،

حتى وافق الأزهر أخيرًا على رغبة الطلاب.. وقبل أن يستاء البعض من هذه الفتوى وجب أن يعرف أسبابها في أحداث هذا الوقت، حتى يتخفف من صدمتها على عقله واستيعابه، فقد سقطت الخلافة الإسلامية قبل هذا الحدث بعامين 1924م، وجعل هذا السقوط من البورنيطة والطربوش رمزا علمانيا، واعتمد **أتاتورك** تصدير هذا الزي حتى للدارسين للعلوم الإسلامية في العالم الإسلامى.. ومن ثم قامت الفتوى اعتمادا على هذا الجانب.

والمراد لى في هذا الميدان أن أقرر أن نبتة دار العلوم هى نبتة أزهرية، من سقاها ورعاها حتى أثمرت وأينعت هم علماء الأزهر، ومحاولة التقليل من الأصل والتجنى عليه، شيء مذموم غير لائق، لا يقف على الحق والإنصاف، ففى هذا الصرح العملاق علماء حاذوا قصب السبق في العلوم، وتفردوا في مسار النبوغ بما يُعجز الآخرين.

وأخيرا أحب أن أشير إلى عنوان المقال الذي أردت أن ألفتك إليه ابتداء لإثارتك وجرك لقراءته، فبمجرد قراءتك لكلمة "كفار" ستظن أن كل من يدرس في هذه الدار كافرا لارتكابه أمرا يغضب الله عز وجل؛ ولكن هذا الوصف قد أفتى به الدكتور محمد أبو الفضل الجيزاوي على من يرتدى الزي الإفرنجى من طلاب كلية دار العلوم، وأردت أن أوضح ذلك لأن بعض العقول يعيينا فهمها الحرفي لكل كلمة في النص، دون النظر للفن الكتابي والتحريري والصياغى.

مذبحة فكرية

لن ينسى التاريخ أبدا ولن تنسى ذاكرة الثقافة ولا الفكر ولا الأدب، جناية الحقبة الناصرية وجريمتها في حق الثقافة والأدب، حينما أقدمت على حذف 602 بيتا من الشعر من ديوان شوقى أمير الشعراء، هذا النظام الذي كان ينكل بكل من يخالفه أو يراه معارضا لتوجهه وسياساته، فيمحوه من الوجود، ويذهب به كما يقولون وراء الشمس.

حذفوا هذه الأبيات من الديوان الأصلى، وأصدروا طبعة جديدة خالية منها، بحجة أنها تمدح فى أسرة محمد على والملك، ولكنها للأسف لم تكن كلها مدحًا في العصر الذي سموه البائد، وإنما كانت تمدح وتمجد الحريات والرأي، خاصة حرية الصحافة والدستور، مما اعتبر هذه القصائد والأبيات تغرد خارج السرب.

لقد كان هذا النظام جريئا وقحا في كل شيء، حتى أنه لو قدر له أن يغير نصوص القرآن لفعل، فلم يكن يحترم دينا ولا تراثا ولا ثوابت ولا قيما ولا هوية تجسد شخصية الأمة، وفي الوقت الذي تحترم الأمم الأخرى رموزها من الشعراء والأدباء والعلماء والزعماء، مهما كان من فكرهم وآرائهم، فيقيمون لهم المتاحف وينصبون لهم التماثيل ويحتفظون بكل خصائصهم وأدواتهم وملابسهم، يأتي العهد الناصري البغيض المهزوم بهذه الخيانة الفكرية البشعة، والعدوان السافل على تراث نابغة

الشعر العربي بعد المتنبى، وظلت الأمة تربى وتتناقل هذا البتر الكبير من تراث شوقى، حتى قيض الله –تعالى- لرجل من عشاق الشوقيات أن يدرك الخيانة ويقف على الرزية، فقام بنشر ديوان الشوقيات المجهولة، وقام من بعده الطبيب مصطفى الرفاعى من تقصى المحذوف والمجهول وطبع الشوقيات الصحيحة وأضاف إليها ما محى عنها عمدا واستهتارا وسفها.

ولكن وللحق فإني أجد مبررًا للأنظمة الحاكمة أن تفعل ما فعلته في تراث تراه مخالفا لتوجهاتها التى تسوس بها الشعوب، وربما لأن قيادتها ربما تكون عقليا غائبة عن مستوى التقدير المطلوب لمثل هذه المآثر والمفاخر التراثية في إطار العلم والثقافة، لكن المصيبة الأكبر أن يقوم بمثل هذه الخيانة أهل الفكر أنفسهم، وتنبع هذه المهذلة من أهل الثقافة ذاتهم، ممن يدعون إلى التنوير وينصبون من أنفسهم دعاة الحرية وأعداء الرجعية والتخلف، فإن الكارثة هنا تكون أعظم حينما تفقد هذه الشريحة عدالتها ومروءتها ونزاهتها، وهى تتجنى على التراث الثمين بهذه الجناية العظيمة من الحذف والتشويه والتضليل والتزييف!

وهذا ما فعلوه مؤخرا مع الرافعى إمام البيان في كتابه "وحى القلم"، حينما نشروه في مكتبة الأسرة في عهد مبارك، وحذفوا منه مقال (الأيدي المتوضئة) لأسباب يعلمها من يبحث عن الموضوع، بل فعلوا في تراث الإمام محمد عبده ما هو أشنع وأخبث وأفظع، وهى الفضيحة التى كشف خيانتها العلامة المفكر الكبير دكتور **محمد عمارة** في كتابه التنوير والتزوير، ووصفها بأنها أكبر مذبحة فكرية ثقافية، قل نظيرها في

ميدان تزوير الكتب ونسخ المؤلفات، حينما نشروا كتاب الإمام محمد عبده (الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية) فحذفوا كلمة النصرانية، ولم يكتفوا بتزوير العنوان، بل حذفوا من المحتوى ما كتبه الإمام عن النصرانية في معرض مقارنة أصولها مع أصول الإسلام، حتى قُدر ما تم حذفه إلى ثلاثين صفحة ، ثم قاموا بما هو أبشع وأعمق من الحذف، فلجأوا إلى التزييف بالحشو والإضافة، فأدخلوا في الكتاب ماليس منه، وما لم ينطق به الإمام.

هكذا يفعل قادة التنوير، أو بتعبير أدق قادة التزييف والتزوير، مثل هذه الخيانة الفكرية في حق الإمام **محمد عبده** وتراثه، حتى يحشروا الرجل غصبا في حزب التنوير التغريبى العلماني، وليدرجوه كرمز من رموزهم، وما كان -رحمه الله- إلا مصلحا دينيًّا كبيرًا، وعلامة بارزة وركيزة فكرية أساسية في الدعوة إلى قيام الأمة على دينها وقيمه وتعاليمه إن أرادت فلاحًا أو إصلاحًا.

ولكنها حرب يقودها من لا شرف لهم ولا ضمير ولا مروءة، حين احترفوا أساليب اللصوص والخونة في التعامل مع تراث رموزنا وهم مجردين من الأمانة والعدالة ونبل الخصومة.

العامية لغة المفلسين

أجرينا مؤخرًا حوارًا مع إحدى المبدعات، وكان مما سألناها فيه موقفها من العامية، فأبدت ضيقها بها، وعزوفها عن الكتابة بكلماتها وجملها.

بعض المعلقين لم يعجبه الرد، فكتب يقول: إنها تتكلم عن العامية وكأنها شيءٌ سيءٌ!

وأحب القول: أن كل دعوات العامية التى أذيعت من قديم، لم تفلح وأعلنت سقوطها، وفساد دعوتها، وإيماننا عظيم بأن من يلجأون إلى العامية، ليست لديهم القدرة على الإبداع بالعربية، فهم يهربون منها، ويفرون من ضخامتها، والذين يتذوقون جزالة اللفظ وحلاوته باللغة الفصحى، لا يرون مثل هذه المتعة في التعبير بالعامية.. إنها إذن لغة المفلسين، وطريقة الكاسدين.

كما أن من يكتب بالعامية، ضيق الأفق والوعى، فهو يكتب لقطره فقط، وبلده وحدها، أما من يكتب بالعربية الفصحى، فإنه يكتب لبلدان عديدة، أجمعت على استلهام العربية الفصحى والقراءة والدراسة بها، فهى لغة مشتركة بين الدول العربية، توحد أذواقهم، كما الدين يوحد ملتهم.

كتب أحد أصدقائى السودانيين رواية عامية، وعرضها على، فرأيت عجمتها تتساوى تمامًا في نظري باللغة الأجنبية، الفرنسية أو الإنجليزية، وقد أفجعنى حينما أخبرنى، أن اللغات العامية فى السودان، تختلف بين الولايات المتعددة، أي أن كل منطقة لها عاميتها الخاصة بها، والتى لا تفهمها المنطقة الأخرى.

فقلت له: لقد ضيقت واسعًا، وحكمت على إبداعك الروائى بالفشل والكبت والتحجيم.

إن الكاتب بالعامية ما هو إلا روائى حكاء، كأولئك الذين يروون القصص والحكايات فى الأندية والمقاهى، أما أن يكون من فرسان الأدب واللغة فما أبعده.

الأدب ليس خيالا فقط، والإبداع ليس في حبك الأحداث فقط، مالم أزين ذلك كله بلغة ناصعة، وبيان خلاب، وبلاغة مبهرة.

لا شك أن هذا الكلام سيغضب منه كثيرون، ولا يرضون عنه، ويعدونه تجنيًّا شنيعًا، ورحم الله شيخنا **العماري** حينما كتب وصفه لكتّاب العامية ودعاتها بأنهم السفلة..

ورغم قسوة اللفظ، فإننا قبل الغضب منه، لابد أن نجد له العذر، ولا يسعنا إلا أن نتوقعه من رجل عاش فى عرين اللغة العربية، وعايش جمالها وتذوق عذوبتها، وغرق فى مفاتن أسرارها، ولو أننا قد أتيح لنا ما أتيح له من التعرف على جمال العربية، لقلنا بأبشع من هذه الأقوال، ضد فتيان العامية ودعاتها.

ولعله كان يدرك خدائع الاستعمار الذي شجع على العامية، ووجد لها دعاة ينادون بها، لا ليقطع الأواصل بين البلدان العربية فقط، وإنما ليقطع الصلة بين المسلم ودينه وتراثه، فقد كانت العامية من أسلحة الاستعمار، في ترسيخ مقاصده لمحو الهوية والانتماء العربي الإسلامى..

ثم يظهر لنا بعض الخبثاء من دعاة العامية، ليحاكوا فرعون حينما استخدم عاطفة حب الوطن ليتنهض قومه ضد موسى عليه السلام، فقال: يريد أن يخرجكم من أرضكم، أقول: حاول بعض الخبثاء ليستخدموا نفس الأسلوب، ويلعبوا على وتر الوطنية، حتى يعبئوا الجماهير ضد لغة القرآن.. ففى مصر كان **سلامة موسى** يقول في كتابه (البلاغة العصرية): "إنها تبعثر وطنيتنا يقصد بذلك "الفصحى" وتجعلها شائعةً في القوميَّة العربية"

وهو قول ماكر ومحاولة خبيثة معروفة المرامى، من كاتب صليبى التوجه والفكر.. ولكن على ذات الخطى، يرى دعاة العامية، ويحتجون بأنها لغة المصريين؛ ولكن الحقيقة أنها لغة المفلسين، وإذا حاول أحدهم الدفاع عنها، وادعى بأنه قرأ روايات جميلة بالعامية، تحمل إثارةً وتشويقًا، فإنه مخطئ حينما قرن التشويق والإثارة بالجمال الأدبي الذي يعتمد على اللفظ والبيان.

إن الكتابة بالعامية تفريط في الأدب الحقيقى والجمال الأصيل، إن الكتابة بالعامية خيانة للقلم ورسالته.

أتيح لى أن أشاهد بضع حلقات من مسلسل الامام الشافعى، بطولة خالد النبوي، دهشت كثيرا حينما وجدت المسلسل يستنطق المصريين باللغة العامية المصرية التى نحن عليها اليوم، والعجيب أنها نالت استحسان الامام الشافعى الذي يجسد شخصه هذا الممثل، ومحال أن يعجب إمام المسلمين بلغة غير لغة القرآن، حتى ولو أعجبته اللكنة، فلابد أن يوجه بسرعة انتشار العربية والأخذ بها .

لكنى أتشمم رائحة غريبة وراء هذا الصنيع، فهى محاولة لإيهام المشاهد، أن العامية هى هوية المصريين منذ الأزل، وأنها لم تخضع حتى لتأثير الفاتحين ولا لدينهم، وعندما بحثت وجدت أن مصر بعد الفتح قد استقرَّ بها عدد كبير من القبائل العربية، فانتشر فيها الدين الإسلامى واللغة العربية بطيئاَ الانتقال بشكل تدريجى، حتى أصبحت في القرن الرابع الهجري لغة جميع أفراد الشعب المصري، ولم تُفرض اللغة العربية قسراً على المصريين بل كانت هناك أسباب امتدت لأربعة قرون أدت إلى انتشار العربية في كل ربوع مصر.

خلاصة الأمر ..أن العربية في حقبة الشافعى قد عرفها المصريون منذ زمن كبير، بل قيل حتى أنهم عرفوها قبل دخول الفتح، وبدؤوا يتدرجون عليها بقوة بعده، وبحظ وافر من نطقها وفهمها، مع احتفاظهم بلغاتهم الأولى، فصارت مزجا بين العربية والقبطية، والتى لم تكن طبعا للعامية الحالية أي دخل فيها أو شبه بها .

كما أن من المعلوم والمعروف أن العامية الحالية تدرجت وانحدرت عن العربية الفصحى، والكثرة الكاثرة من كلماتها، أساسها عربي مع بعض عوج في النطق واللكنات، فكيف يحدث هذا التدرج الذي نحن عليه اليوم، قبل حتى أن يتقن المصريون العربية في زمن الشافعى؟! فقد أتقنوها كما نقلت في القرن الرابع الهجري، والشافعى كان في نهاية القرن الثاني .

عجيب هذا الخلط، بل هو كذب وتدليس أراه أفسد المسلسل، وأفسد تذوقه، وهو الإفساد الذي انعكس سلبا على قيمة الشافعى وشخصه .

بل تعدى الأمر أن ينطق الإمام نفسه باللغة العامية في بعض الأحيان، وهو أمر غريب من السيناريو وإصراره على غمز قضية اللغة في كل حلقة، ومع كثير من المشاهد، وكأن العامية هى المهيمن والساحر والمؤثر في العربية الفصحى، وليس العكس، مما بدا شيئا سخيفا ممجوجا، وزائدا عن الحد .

هذا النمط في عرض المسلسلات التاريخية جديد وغريب، وله غرضه الواضح، ومأربه المكشوف، وهو الدعوة بكل صراحة ..أننا كمصريين لا شأن لنا بالعربية، فهى ليست لغتنا ولا يجب أن نتعصب لها.. أو أن تنال من نفوسنا قدسية.

الشهرة حظوظ وظروف

هل تصدقنى لو قلت لك أن الشهرة في بعض الأحيان تكون رزقا وحظا لا دخل له بالجدارة والجهد والمُكنة والإجادة؟! نعم فقد تكون هناك ظروف محيطة تجلب لك هذه الشهرة دون تعب منك أو عنت، ولو نظر الناظر إلى إمكاناتك، لوجدها في الغالب صفرًا أو تحت الصفر.. ولكن مع الأيام ينسى الناس فقر إمكاناتك، وضعف مواهبك، ولا تبقى إلا هذه الشهرة المدوية، التى تخلد ذكرك وتبقى اسمك، مما يجعلنا اليوم نجزم أن الشهرة في بعض الأحيان، أرزاق وحظوظ وظروف لا أكثر ولا أقل.

هل تعرف صورة الموناليزا؟

ومن منا لا يعرفها؟!

ولكن ما السبب يا ترى في شهرة هذه الصورة؟ هل هو جمالها وسحرها وروعة ملامحها؟! إنها لم تكن تحمل أي شيء من معاني الجمال التى يحيكها العالم اليوم ويخصها بها، حتى حدثت لها هذه الحادثة التى أدت لشهرتها الطاغية، وجعلت منها أمثل عمل فنى في التاريخ، بل إن هذه الحادثة جعلت العالم كله يتنبه لجمال الصورة، ويوغل في تأمل معانيها وأسرارها، ويحكي ويروي عما فيها من إعجاز مبهر.. لكنه للأسف لم يكن هو الحال

قبل أن تحدث هذه الحادثة التى تسببت في شهرة هذه الصورة التى رسمها دافنشي في العصور الوسطى.

في عام 1911م استطاع شاب فرنسى يدعى **بيروجى** كان يقوم بترميم بعض إطارات الصور بالمتحف أن يسرق الموناليزا ويخفيها لديه، وبعد عامين باعها لفنان إيطالي هو **ألفريدو جيري** الذي ما أن رآها وتأكد أنها **موناليزا دافينشى** الأصلية حتى أبلغ السلطات الإيطالية التى قبضت على اللص، وأودعت اللوحة في متحف بوفير جاليرى، وفرح الإيطاليون كثيرا بذلك.. عامان كاملان تسرق فيهما اللوحة ولا يتحرك العالم، ولا تضج فرنسا وتعلن خسارتها الفادحة.. فهى لم تكن في نظرها إلا مجرد لوحة.. ولكن لما علمت فرنسا بالأمر، دارت مفاوضات عبر القنوات الدبلوماسية بينها وبين إيطاليا، وكادت العلاقات تنقطع، لولا أن فرنسا استطاعت أن ترغم إيطاليا على إعادة اللوحة لها ومعها السارق.

كان يوم محاكمة **بيروجى** يومًا مشهودًا، حيث تسابق كبار المحامين بباريس للدفاع عنه، وقد ذكر **بيروجى** في معرض الدفاع عن نفسه: أن الدافع على سرقة الموناليزا، هو أنه كان يحب فتاة تدعى ماتيلدا حبًا شديدًا لكنها توفيت بعد معرفة قصيرة بينهما، وعندما شاهد الموناليزا باللوفر وجد فيها ماتيلدا حبيبته، فقرر سرقتها.. وصدر الحكم عليه بالسجن لمدة عام واحد فقط.. ومن أجل الظروف والأحداث التى أحاطت بالصورة، كانت شهرتها ومعرفة العالم بها.

كتب أستاذنا **محمود سلطان** مقالا مهما، ذكر فيه أن توت عنخ آمون، أحد الذين تعاقبوا على حكم مصر، ويقال إنه تولى السلطة بين (1334 إلى 1325 ق.م).. كان حاكمًا "تافهًا" لا قيمة له ولا وزن، قتله وزيره وهو في الـ 18 من عمره، ليتزوج أرملته من بعده.. لم يثبت أنه ترك تاريخًا من الإنجازات لتخليده.. ومع ذلك فهو أكثر الحكام الفراعنة شهرة.. وهى مفارقة تسأل عن سر هذه الشهرة.. رغم تفاهته وقلة ما تركه من "إنجازات" أو انتصارات عسكرية، كما هو الحال للملوك الفراعنة! والحال أن شهرته ترجع إلى أن مقبرته الملكية بكنوزه كاملة هى الوحيدة التى اكتشفت.. على يد عالم الآثار البريطاني **هوارد كارتر** عام 1922م

إذا قدر لك أن تشاهد كنوز **توت**، في متحف التحرير (357 قطعة ذهبية).. فستعرف حينها، حجم الجرائم التى ارتكبت بحق المال العام.. فالحاكم في حياته يستولى على ثروات المصريين من الذهب.. ويستخسرها فيهم بعد وفاته، فتدفن معه في مقبرته، ليحرمهم منها عشرات القرون.. ولولا أن المقبرة اكتشفها هذا العالم البريطانى، لما قامت لها هذه الضجة الكبرى! وشبيه بهذا التصور ما كان من حادثة دنشواي، فتاريخ الاحتلال يغط في مجازر كبيرة ومروعة، كانت أكثر جرمًا وغدرا وظلما وهدرا في الأرواح من دنشواي، ولكن لماذا اشتهرت دنشواي بالتحديد وصارت مضرب الأمثال على الظلم والتجنى الذي شهده المصريون على يد الاحتلال الإنجليزي الغاشم؟

كل ما في الأمر أن هذه الحادثة وقتها قد قيض الله لها الزعيم الشاب **مصطفى كامل** ليقلب عليها الدنيا ويندد ببشاعة انجلترا ويفضحها في المنتديات العالمية، ولو لم يكن هناك **مصطفى كامل** لابتلعها النسيان، وانطوت في كتب التاريخ شأنها شأن كثير من المآسى والجراح التى مرت بمصر.

الشهرة آفة ومرض

الشهرة.. آفة. مرض، هوس، رغبة، شهوة، طموح، أمل، غرض، غاية، هدف، طمع، جوع، جنون، سحر.. كلها معان يمكن أن تؤول إليها توصيفاتنا للشهرة. إذن كيف ينجو الإنسان من آفة الشهرة؟

إن السبيل إلى النجاة منها، يكون بالعقل والحكمة والتأمل في العواقب.. قد تحب أن تكون مشهورًا، ويشير إليك الناس ببنانهم.. لكنك لا تنظر فيما بعد ماذا ستجلبه عليك الشهرة من تضييق وكبت واختناق؟!قد تجلب لك السعادة والمال والحضور والاحترام.. لكنها ستقيد حريتك حينما ترى الناس يضعونك دومًا تحت المجهر، فإذا تكلمت تكلمت بقيد، وإذا تحركت تحركت بقيد، وإذا خطوت خطوت بقيد، تعمل للناس في كل ذلك ألف حساب، حتى في ملبسك وطعامك.. يظل عامل الناس شبحًا مرعبًا يهدد حياتك ويخيفك، وكأنك تعيش لهم وبهم، لا تعيش من أجلك ولنفسك، تفقد سريعًا كثيرًا من المتع، وأقدارًا هائلة من الحرية بسبب الناس.. في ميدان الكتابة نستطيع أن نقول: "إن أكثر العوامل التى تقضى على الكاتب في بداياته، هى الميل المحموم للشهرة واكتساب الجماهيرية، يسارع إليها وكأنه أعمى، نعم أعمى عن تلك الأدوات والمهارات التى يجب أن يستكملها ككاتب قبل أن يواجه الجمهور".

بعضهم ينشر روايته في مطالع تكوينه، وهى ليست على القدر المطلوب من الجودة والاستحسان، يفرح بها وبأوراقها، ويتخيل أنه صنع شيئًا عظيمًا، فإذا أمعن فيها الجمهور وبدأ يستطلع عنها الآراء، رأى وسمع ما يحزنه، وربما ما يعقده ويعيق استكماله في مسيرة الكتابة، ليس الخطأ غالبًا في النقد، أو في هذا الجمهور الذي ربما يتهمه الكاتب بالغلظة والحقد، وإنما الخطأ الأول فيه هو، حينما تعجل النشر قبل أن يستكمل عدته ككاتب مكين، والآن أقول لك: إن الشهرة أحيانًا تكون كفرًا حينما تدفع إليه، وتتزيا كثيرًا بزي الإلحاد والفجور!

نعم كفر والعياذ بالله، فمن أجلها يندفع كثير ممن لا دين لهم ولا خلق ولا ضمير، إلى الطعن في كتابه وملته ورسوله ودينه، حتى يتناول الناس مصيبته، ويكون حديث المدينة والفضائيات والصحف والمنتديات، يلحد في آيات الله ويسب الصحابة حتى ينال الشهرة.. فمن أجل ذلك يكون الكفر أحد سمات ومكونات الحصول على الشهرة البئيسة.. بل أقبح منهم ذلك الكاتب الأخرق الذي يكتب في الجنس والدعارة الدبية، حتى يسارع إليه الشباب ويرون إبداعه الفاجر وهو يصف جسد المرأة والعلاقة الجنسية بين الطرفين.. ما أفجره وما ألعنه، وما أشد خيانته لأمانة القلم.

أرأيتم ذلك الأعرابى الذي وقف وسط الحجيج ليبول في زمزم، فلما انهال الناس عليه ضربًا، سألوه لم فعلت ذلك؟ فقال لكى أكون مشهورا! وليقول الناس كلما رأوه هذا الذي بال في زمزم.. بئست الشهرة هذه ولعن الله أصحابها..

كما أن الشهرة في المنهج الصوفي هى أحد الأمراض التى يتعامل معها الصوفية بحذر شديد، فهم يرونها مما يهدد دواعى الإيمان، وحصول القرب بين العبد والرب، ومن ثم يفرون من الشهرة فرار السليم من الأجرب، وفرار الإنسان من الأسد.

ودعونى أصارحكم.. فأنا بشر كالبشر وإن حاولت أن أدعى لنفسى الكمال فهذا كذب وزيف، فالشهرة من هذه الأغراض التى تداعب أحلام المبدعين وخاصة الكتاب وأصحاب القلم منهم، ولعلى أكون ولعًا بها في كثير من الأحيان، وأسعى إليها في كثير من الأوقات، وأشعر براحة النفس حينما أنال قدرًا منها، أو أحقق بعض ملامحها، وإذا كنت أصارحكم الآن بشيء يمكن لغيري أن يخفيه في محاولة لتنزيه نفسه، فإننى أعترف بوجوده في ذاتى، ولكن لا يمكن أبدًا أن يمر هذا النقد الصريح لذاتى، دون أن أتبعه بشيء أراه مما ميزه لها، أو بمعنى آخر يضفى على هذا الاعتراف بالعيب، شيئًا يمكن أن يخفف من آثاره، فأنا والحمد لله لا يمكن أبدا أن أكتب بقلمى الذي وهبه الله –تعالى– لى شيئًا مما لا يرضاه أو يحرمه، ولا يمكن لهذا القلم، أن يعتدي على حرمات الله ودينه ورسوله من أجل الشهرة، لا يمكن أبدًا أن أخط حرفًا في ميدان الجنس لألهب فوران الشباب وشهواتهم، لأسوقهم سوقًا للالتفاف حولى، وذلك كله لسبب بسيط جدا وهو، أننى أفكر دائما كيف ألقى الله –تعالى– بهذا الوزر؟ وكيف وأين ذهب ونال من كتبوا هذه الموبقات؟ هل خلدهم التاريخ؟ هل حققوا السبق ونالوا الأوسمة؟

إن التاريخ وضعهم في سلة القاذورات التى أعدها لأمثالهم، حينما لم يقدموا له قيمة، ولم يدعموا بأقلامهم عقيدة أو رسالة.

أم كلثوم . . أديبة

أرى من وجهة نظري أن لفظة الأديب لا تقتصر فقط على المبدع، وإنما قد يشاركه فيها القارئ المتلقى والمتذوق لهذا الأدب، فهما شريكان في عملية مكتملة هذا يبدع وهذا يتذوق، ولو لم يوجد المتذوق، لما وجد المبدع، ولو لم يوجد المبدع لماتت ذائقة المتذوق.

يقولون إن العرب أهل الفصاحة والبلاغة، وفيهم نزل القرآن الكريم معجزا مهيمنًا، وكان فيهم ومنهم الشعراء الفحول، فهل معنى أنهم أهل الفصاحة والبلاغة، أنهم جميعا كانوا شعراء ناثرين؟ ليس هذا صائبا، ولكن المعلوم أن أغلبهم ذواقون للكلمة متناغمون مع التعبير الرائق.. وهكذا يكون الحس الأدبي عاملا مشتركا كما ذكرت بين المبدع والمستمع.

ونقول كذلك حينما يكتب الأديب روايته أو يكتب مقالته، هل يتذوقها كل الناس وعمومهم؟ إن سطوره لا يقبل عليها إلا عشاقها، والراغبون في هيامها، ومن ثم لهم كتب، ومن أجله قرؤوا.. ومارد الأدب بين المتكلم والمتلقي، هو نفسه ذات المارد، لكن الأول يستطيع

التعبير والأخر يستطيع السماع، فكلاهما يكمل الآخر.. بل عندي أن ذوق المتلقين أكثر خدمة ودعما للأدب، فلولاهم ما قامت للأدب قائمة، أو للشعر بارقة.

كنت أسمع أن **أحمد شوقى** كان يؤلف القصيدة، ولكنه في الحفلات والمسابقات والمساجلات لم يكن يلقيها بنفسه، ولكنه كان يأتي بمن لديه موهبة الإلقاء فيلقيها عنه، حتى تكتمل في قصيدته معالم الجمال، بينما حافظ يلقيها بنفسه ولم يستمع لأحد، لأن حافظ شاعر النيل، كان يتمتع بالأداء والإلقاء القوي.. ويمكن للقصيدة أن تموت إذا كان شاعرها فاقدا لبراعة المواجهة.

لقد حاولت كثيرا مع عدد ممن عرفتهم من القراء، الذين أبصرت فيهم حاسة التذوق الأدبي والتى كانوا يعبرون عنها بالقراءة فقط، وبحفظ كثير من مقاطع الأدباء، التى كانوا يتغنون بها وينبهرون بكلماتها، كنت أدرك بشدة ويراودني إحساس أن هذا الحس الكبير، يمكن له أن ينتقل من حالة التلقى إلى حالة الإبداع، لو توفرت له سبل التحفيز والتشجيع والمران، وقد نجحت كثير من المحاولات، وهو السر الذي لا يفطن إليه كثير من القراء المتذوقون، لا يأتي في خاطرهم يوما أن يكونوا مبدعين، هم فقط من القراء المتذوقين.. لكنهم لو جربوا ووضعوا في خاطرهم هذا الأمل ورووه ونموه، لربما كان وراءه مبدع كبير.

وأم كلثوم كانت مطربة ناجحة، لم تعتمد فقط على موهبتها، وإنما أثقلتها بالدراسة والاجتهاد والصبر والتحصيل والقراءة، ومن ثم

تفوقت على أقرانها الشرسين، الذين أحاطوها بالمكائد والمؤامرات، ولعلها وإن كانت مبدعة في الصوت الذي هو موهبة إلهية، فإنها أثقلت هذا الإبداع بمخايل التذوق، فقد علمت أنها قرأت مع الشاعر **أحمد رامى** عددًا كبيرًا من أمهات الكتب العربية التراثية القديمة والحديثة، لقد قرأت معه كتاب الأغاني، ومختارات البارودي، وديوان شوقى، وكثير من الشعراء العرب القدامى، ولم تكتف بهذا، بل أحاطت نفسها على الدوام بعناصر الأدباء والمثقفين والمفكرين في زمانها، مما ساعدها أن تشعر بروح العصر الذي تعيش فيه ولا تتخلف عنه أبدا.. فلماذا كل هذا؟ لماذا القراءة والدراسة، واهتمامها بالثقافة الأدبية؟

لقد قالوا إن ذلك كله قد أسهم في تربية ذوقها وحسها الأدبي، وساعدها على الإحساس بالكلمات التى تغنيها، لتعطيها قدرة عالية على فهم المعنى الكامد وراء هذه الكلمات، لتتمكن من أدائها بالصورة العميقة التى تتناسب معها وتوائم وقعها.. ألست ترى معى أن أم كلثوم أديبة، وإن كانت بصورة أخرى، ألست معى أنها مبدعة وإن كان بطريقة مختلفة؟ ربما تراها ناقلة للكلمات فقط، ولكنها استطاعت أن تخدم المسيرة الأدبية، فتوصل هذه الكلمات التى شقى المبدعون من الشعراء في نظمها إلى عموم الناس على اختلاف طبقاتهم وألوانهم.. وكان الفضل لهذا كله في الحس الذي تكون، واجتهدت هى في تكوينه، بالدراسة والقراءة.

يقول الشاعر الكبير **أحمد رامى** وهو يقدم نصحه للشعراء: "إذا أردت أن تكون شاعرا فاقرأ الجيد من الشعر العربي والعالمي، وأكثر من

الاستماع إلى أم كلثوم، وذلك لأنها تجلو الألفاظ فتجعلها واضحة مشحونة العاطفة، وتخلق لدى من يسمعها في نهم إحساسًا عميقًا بالكلمة والنغم وعذوبة الأداء"

أرأيت بماذا كان النصح، لقد أدرك رامى أن كلمات الشعر هامدة جوفاء، مجرد سطور على أوراق، لكن **أم كلثوم** هى التى أجرت فيها الدماء وجعلت لها روحا تتحدث وتخترق الأسماع والوجدان.. وهو ما عبر عنه الموسيقار الكبير عبد الوهاب بقوله: "إن المستمع لها لا يرى مطربة تغنى، ولكنه يرى فنانة تتعب، فنانة تعرق، تعطى كل ما عندها للمستمع، دون أن تضن عليه، إنها تعطيه دموعها وأنفاسها وليس صوتها فقط".وما أجمل تعقيب الصديقة **هدى كامل** فيما يعضد لمساتها الأدبية إذ تقول: "لم يكن لأم كلثوم ثقافة وشعور فقط، بل كان لديها ذكاء فنى بمعنى كيف كانت تخاطب جمهورها وتطل عليه، لدرجة أنها غيرت في تحفة إبراهيم ناجى "الأطلال" إذ بدأ قصيدته (يا فؤادي رحم الله الهوى.. كان صرحا من خيال فهوى) بحسها الفنى لم تطل على الجمهور بكلمة (رحم الله الهوى) وغيرتها (يافؤادي لا تسل أين الهوى...)

أرأيت أجمل من حسن الاستهلال هذا!

أراه ذكاءً وحسًا رائعًا ونبضًا لكلمات الشاعر!

أين نحن اليوم من هؤلاء العباقرة؟! و-الشواكيش- تدق على رؤوسنا بالمبتذل من الكلمات والمشاعر الرخيصة!"

أنا لم أفهم شيئا

الناقد الماهر هو الناقد الذي يوجع بكلماته دون أن يكون ظاهرها إيجاعًا.

والكلمات الموجعة المواربة باب من أبواب الفطنة والحنكة والذكاء، لا يفطنها أي أحد، فهناك من يضرب بلسانه ولا يبالي ليقفز من فمه بثقيل الكلمات وشديد العبارات.. وهناك من ينتقى كلماته التى تبدو في ظاهرها مهذبة عاقلة مألوفة، ولكنها تحوي في أعماقها ما يفجع القلب ويستفز النفس ويهيج غضب الروح.. وأنت إذا نظرت إلى قول **الحطيئة** في **الزبرقان بن بدر** حينما هجاه بقوله:

دع المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتها ** واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى

فإنك حيال هذا البيت لا تجد فيه شيئا ذا بال، لا تجد فيه سبا أو شتما أو قذفا عنيفا يستوجب ثأر المهجو، ولكن النقاد عدو هذا البيت من أشنع وأبشع ما قيل في الهجاء، لماذا إذن؟ لقد جاور الحطيئة الزبرقان فلم يحمد جواره، فتحول عنه إلى غيره ولم يفته أن يهجو الزبرقان فكان هذا البيت مما قاله فيه.

وحينما سمع **الزبرقان** ذلك، لم يهنأ له عيش أو قرار، فأسرع إلى أمير المؤمنين **عمر بن الخطاب** -رضى الله عنه- يشكوه أمر **الحطيئة** وما قاله فيه. فقال له **عمر**: ما أرى هذا هجاءً؛ أو قال: ما أسمع هجاء، ولكنها معاتبة. (وفي رواية أخرى: أما ترضى أن تكون طاعمًا كاسيًا؟، وفي رواية ثالثة: ولكنه مدحك).و**عمر** هنا لم يكن جاهلا بفحوى الكلام، فقد كان أعلم الناس بذلك، ولكنه أراد درء الحدود بالشبهات.قال له **الزبرقان**: "أو ما تبلغ مروءتي إلا أن آكل وألبس؟!"قال **عمر**: عليّ بحسان، فجيء به ليحكم، فقال: "لم يهجُه ولكن سلح عليه" (أي تغوّط، كناية عن شدة الهجاء).

ويقال إنه سأل **لبيدًا** كذلك، فقال: "ما يسرني أنه لحقنى من هذا الشعر ما لحقه وأن لى حُمُر النّعم" (أي كرام الإبل).

يتمثل إلى من وحى هذا الموقف مكر عميد الأدب العربى **طه حسين**، لقد كان الرجل ذكيا جدا وداهية جدا.. كان في بعض الأحايين إذا أراد أن ينتقد انتقادا مرا، يتقول بكلمات يبدو ظاهرها هادئا لينا بسيطا لا يبعث على غضب ونكران.. لكنك لو تأملته قليلا في فحوى ما نطق به لرأيتها كلمة تراق في سبيلها الدماء أو تطير على منطوقها الرؤوس.

وهى الكلمة الحويطة التى كان **طه حسين** يستخدمها مع بعض أعلام عصره حينما يريد أن يبدي رأيه في مؤلفاتهم أو حينما يحاول أن ينتقدهم فيها، فهو هنا لا يسب أو يشتم أو يهاجم أو يسخر، وإنما يكفيه فقط أن يقول: أنا لم أفهم كتاب فلان.

وفي سيرة **طه** نجده قد فعل هذه الفعلة مع اثنين من أعلام العصر وأدباء الدهر.. فعلها مع **الإمام الرافعى** حينما علق على كتابه تاريخ آداب العرب الذي ألفه عام 1909م وكان **طه** وقتها طالبا بالجامعة فقال في مقال نشره في (الجريدة) عام 1912م وأعلن فيه أنه لم يفهم من المقال حرفا!

أما الثانية فقد فعلها مع **العقاد** بعد موته ليثير حفيظة تلامذته بأن صرح في اللقاء الشهير الذي استضافه فيه التليفزيون المصري بقوله: "أعترف أني لم أفهم عبقرية عمر ولا عبقرية الصديق، وتعجبت عندما قرأت عبقرية محمد لأنه وازن بين موقعة بدر ومعارك نابليون"وكلمة لم أفهم، كلمة شديدة وعنيفة، فهى تعنى إن صدرت من جاهل أن تدل على جهله، ولكنها تعنى إن صدرت من عالم أن العيب في صاحب الكتاب.

وكلمة لم أفهم، كلمة كما قلت رقيقة طريفة لينة لا تدل على شيء، وظاهرها أنك تنتقد نفسك لا تنتقد الآخرين، لكنها تعنى في فحواها نقد الآخرين، وكأنها تريد أن تقرر فشل الكاتب، في أسلوبه وتعبيره ومنطقه وبيانه إلى الحد الذي استعجم أمره على القراء فلم يفهموا شيئا.. وإني لأعترف في هذا السياق أننى لم أفهم أسلوب الأستاذ **محمود شاكر** خاصة في كتابه الشهير (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) الذي يحمده القاصى والداني من أنه درة المؤلفات وأروع المكتوبات.. أجهدت نفسى كثيرا أن أعيش أسيرا لجمله وعباراته فلم أتذوق منه شيئًا، وصرت أتعجب وأقول: كيف لهؤلاء المادحون أن يجدوا حلاوة في أسلوب **شاكر**

بينما أنا لا أراها ولا أتذوق منها شيئا؟! إننى لا أفهم شيئا! وأخيرا اهتديت وعرفت أن هناك نوع من الكتاب الكبار لن تستطيع أن تشعر بأنغام أسلوبهم حتى تتدرب عليه وتعيده وتكرره حتى تحل شفرات ذوقه.. و**شاكر** من هذا النوع الذي يريدك أن تتدرب عليه حتى تشعر بلذته.. لكننى هنا حينما أقول لا أفهم أسلوب **شاكر**، فلا يمكن أن يتساوى كلامى بذلك المقصد الذي يريده **طه حسين** ممن ينتقدهم، فأنا لا أنتقد **شاكرا**، ولا يمكن لي ذلك إذ لا أبلغ ذرة من تراب علقت بكعب حذائه، فكيف للثرى أن يطاول السماء.. ولأننى نكرة في عالم المعرفة، مطمئن جدا أن كلامى لن يؤخذ أننى أعيب تراث العالم الكبير، وإنما سيتبادر إلى الذهن سريعا أن المشكلة فيّ أنا وليست في **شاكر** صاحب إمام العربية وعمدة المحققين.. ناهيك عن هذه الكلمة حينما تكون أخطر كلمة تعبر عن أخطر نقد لو أنها بدرت من عالم فذ أو أديب مشهود، فإنها لتكون نقدًا من قبيل ما نقد به **الخطيئة** غريمه، كلمة يسيرة هادئة لينة، لكنها تجر في أحابيلها عواصف وأعاصير، تماما كما كان يدرك مغزاها **طه حسين.**

الصور المُلهمة

منذ فترة ونفسى تحدثنى أن أطبع عددًا من صور المفكرين والعلماء الذين أحبهم وأجلهم، وكان لهم تأثير كبير في ذائقتى ومعرفتى.

إننى أريد تعليق هذه الصور في حجرة مكتبى أو أضع بعضا منها عليه أمام ناظري، أريد أن أشعر بهم أمام عينى يصاحبوننى كلما قرأت أو كتبت.. بداخلى إحساس كبير أن وجودهم يبعث على الحماس ويحفز على الإبداع والإلهام.هل فعلا ينبعث هذا الشعور في نفسى، وأجد ضرورته في ذاتي، أم أننى فيه من المقلدين؟ حتى لو قلدت، فقد وجدت هذه الفكرة تناسبنى، ويطرب لها هواي، وتجدها نفسى من أدوات الكاتب المُهمة التى يجب أن يستكملها.وإذا كان الكاتب يُسلح نفسه باستكمال أدوات الكتابة من تجميل الأسلوب وصقل البيان، فلابد له من قسطه المهم في استجلاب الإلهام، وشعوره بصحبة أهل الفكر والإبداع ممن سبق من العظماء، من خلال صورهم المعلقة المنصوبة. نعم إنها الصور الملهمة، التى تفتح مغاليق الإبداع للكاتب كلما أراد أن يكتب ويبدع، ليشعر بهم أمامه ومعه في حضرته، يحمسونه ويشجعونه أن يكون منهم ومثلهم، يخاطبهم أحيانًا ويناجيهم أحيانًا أخرى، كلما أراد أن يكتب ويفكر ويتميز ويثمر.

وإذا كان الكاتب يهتم دوما بمكتبته، ويرى أن أرففها أكبر باعث على الإلهام حينما تصطف مرصوصة يتلاحم بعضها ببعض، وهى تحمل أسماء أصحابها الكبار، فإن صور هؤلاء الأعلام لا تقل في بعث الهمة عن قامات كتبهم.. ولقد جاءت فكرة هذا المقال حينما جدد باعثه في همتى، ذلك الحديث الذي دار بينى وبين صديقى الدكتور **أسامة العربي**، وقد كان من التلاميذ المقربين من العلامة الراحل دكتور **محمد رجب البيومى**، وكان مما ذكره لي من هيئة حجرة مكتبته ومكتبه، أنه كان يعلق على الحائط بعضًا من صور الأدباء والعلماء والعباقرة التى اقتصها من الجرائد.

وكان منهم العقاد وأحمد لطفى السيد وعلى الجارم، وبتهوفن وعبد الوهاب.. ولقد جاء الحديث على هامش ما كتبته عن الإمام الرافعى الذي كان أيضا يدرك سر الصور في استجلاب الإلهام، فكان مما ذكرته أنه كان يضع على مكتبه ثلاث صور، صورة الشيخ محمد عبده وصورة الرياضى (صاندو) وصورة ملكة جمال تركيا في وقت مضى (كريمان هانم خالص) وعندما سئل عن اجتماع تلك الصور، قال عن صورتي الشيخ محمد عبده وصاندو: هاتان قوتان تعملان في نفسى: قوة في روحى، وقوة في جسدي فسأله عن الصورة الثالثة فقال: وهذه.! ما أجملها! انظر! ألا تقرأ شعرا مسطورا على جبينها.. وكان ممن أولع بصور المفكرين والأدباء والفلاسفة إلى الحد الذي صار يعتقد أنه لا يمكن أن يكتب إلا في حضرتهم، بل تطور الأمر معه بشكل مذهل من مجرد صور معلقة، إلى إيجاد تماثيل مجسمة، يرصها أمامه وهو يكتب ويؤلف، فهو

أستاذنا **عبد الوهاب مطاوع**، بل كان دائب البحث في سفرياته عن رؤوس التماثيل لهؤلاء العظماء.

أما عن الأدباء والمفكرين الذين أسعى لتعليق صورهم، فهم بين القديم والحديث والعالم والأديب، فأولهم وأبداهم لا شك عندي هو الشيخ الغزالي – رحمه الله –، أكثر الكتاب والأدباء تأثيرا في نفسى ولفظى، ولا يغيب عنى صاحب ذلك القلم الذي أحببته وعشقته، والذي كان يتفجر إحساسا ورقة، أستاذي الجيل عبد الوهاب مطاوع، ولا تفوتنى أبدا صورة العملاق أنور الجندي الذي كانت كتبه صحوة للوعى والفهم وكان قلمه رسول الحق والحقيقة، ولايمكن كذلك أن تغيب صورة العقاد عن أي حائط من الحوائط، ومن كتاب الغرب فلا يمكن لى أن أغفل صورة العبقري البائس دوستويفسكى، وسأطبع صورة الرافعى إمام البيان، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، والعلامة محمد رشيد رضا، وعلى الطنطاوي، وعبدالحليم محمود، وهناك صور أخرى سأعلقها لا أحب ذكر أصحابها لأن تقديرهم لا تستوعبه بعض الأفهام القاصرة أو المضللة.. لكننى سأعلقها احترامًا وتقديرًا وحبًا لأصحابها، فهو حائطى الذي لا ينازعنى فيه أحد، وأعكس على قامته ما أهواه من مثل وشخوص.. ألا تراني بما أفعل قد بررت هؤلاء بعد موتهم، وأحاول تقديم شكر خاص لهم؟ بل هل تؤمن مثلى أن وجودهم باعث على الإلهام؟

بالمناسبة، قل لي أنت ما تريد تعليقه من الصور؟

الصداقة يمكن أن تموت

أحيانا يخيل إلى أننى صرت كبيرا ولدي من خبرات الدنيا ما يؤهلنى لفهم غرائب الحياة وطبائع الناس ومستجدات الدنيا.ولكن يبدو أن الأيام تصر أن تصفعنى وتردني خائبًا لتقول بلسان حالها: مازلت صغيرا لم تتعلم بعد.

منذ أن انهيت كليتى عام 2001م وأنا في قمة أساي لفراقى بعض أصدقائى الذين كنت أحبهم ويحبوننى، وبيننا لهو وذكريات، ونكات وضحكات، وطعام ومشروبات، وصحبة طويلة وسمر لا ينسى، فارقتهم وفارقوني بمجرد الانتهاء من السنة الرابعة من الجامعة.. ذهب كل في طريقة ولم تعد بيننا صلة أو معرفة، ولم يكن وقتها قد انتشرت أو وجدت وسائل التواصل الاجتماعى والإنترنت، حتى الإيميلات لم يكن لنا بها علم أو حرص حتى تيسر أمور التواصل.

المهم أننى ومنذ ذلك الوقت وذاك الحين وأنا أبحث عن هؤلاء الأصدقاء بحيرة وشغف وسؤال هنا وبحث هناك، وكنت كلما لقيت أحدًا قريبًا من بلدانهم أسأله على أحدهم طمعا أن يدلنى عليه.. ومع ظهور التقنية الحديثة كنت أدخل أسماءهم في خانة البحث لعلى أجد شيئًا يدلني عليهم، فأعيد ما كان بيننا من محبة ووداد.

أكثر من عشرين عاما وأنا أبحث فماذا حدث؟

أما أحدهم فاهتديت إليه بالصدفة حينما أخبرني بعض أصدقائنا أن له أخًا يعمل في جهة ما، فتوصلت إليه وأخذت رقم أخاه، وحدثته عبر الماسينجر، وكنت في قمة فرحى وسروري حينما وجدته، وياليتنى لم أبحث عن شيء ولم أجهد نفسى توقا إليه، ليتنى قتلت هذا الشوق الذي تغذى طوال هذه الأيام على الوهم.. فقد وجدته فاترًا باردًا يرد على بقوله: أهلا أهلا أستاذ حاتم حياك الله أخبارك وأخبار كل أصدقائنا.. وقد يظن القارئ أنه رد ردًا جميلًا مناسبًا لم يفقد حفاوته، ولكن الحال ونبرة الصوت كانت تتفجر بالبرود الذي لا روح فيه، يدل على هذا أنه بعد نهاية المكالمة لم يفكر في الاتصال ولو مرة وقد مرت على مكالمتى له عدة شهور.

لم أكن أتوقع أن ينادينى بالأستاذ وهو ما تعجبت له، لكننى علمت أنه نال الدكتوراه وسافر إلى دول الخليج، فأدركت أن الرجل ليس على استعداد أن يسقط الحاجز العلمى حتى مع صديق له كانت بينهما عشرة طويلة وود قديم.. هل تتخيل أو تصدقنى لو قلت لك: إننى قلت ساعتها لنفسى: كم أنت أبله! ولكنى عاودت أحدث نفسى وأقول لها: لعل هذا الصديق حالة فريدة، فلنبحث عن صديق آخر وياليتنى ما بحثت وماوجدت.. فقد كان في نبأ هذا الصديق الثاني من العجب العجاب ما لم أتخيله.

فقد كان من قرية قريبة من قريتنا وكنا في أغلب الأيام نغدوا ونروح سويًّا، نتحدث كثيرا ونضحك أكثر، حتى أننى زرته يوما في بيته، وبعد التخرج انقطعت الصلة وافتقدته وسافرت أنا إلى المملكة العربية السعودية أكثر من عقد من الزمان، ومن يومها وأنا دائم البحث عنه، أسأل عنه من ألقاهم من أفراد قريته فلا يعرفونه، فأصف لهم بيته فلا يهتدون إليه، حتى وجدت قريبًا لنا من هذه القرية، وأخذت أصفه له، فعرفه وقال لى: إنك لو ظللت طوال عمرك تبحث عنه بهذا الاسم فلن تجده أبدا، لأن له اسما للشهرة غير الاسم الحكومى الذي تعرفه به.

المهم أخبره وأعطانى رقم هاتفه، واتصلت به وحدثته، وكنت سعيدا جدا بالحصول عليه، فإذا به يرد على ويقول لى: سامحنى أنا مش فاكرك.. هنا أسقط في يدي وكدت أصعق، وشعرت كمن أخذ لطمة على قفاه.. أخذت أذكره بكل شيء وكل موقف وكل أصدقائنا، فتذكرهم جميعا إلا أنا، كانت حالة غريبة.. إلا أننى تعلمت بعدها ألا أسأل على صديق قديم أبدا، وأن الصداقة القديمة إذا انقطعت فقد ماتت وانتهت، ولا تحاول إحياءها مرة أخرى.. وهنا لا أنكر أن بعض الأصدقاء القدامى ممن غابوا عنى كثيرا ووجدتهم قد لقيت منهم ترحابًا كبيرًا وودًا عظيمًا، وكأننا قد تفرقنا بالأمس، وهؤلاء لهم محبتى وأشهد أن نفوسهم سوية وأخلاقهم عفية لم تتبدل أو تتغير.

أما أولئك الذين تغيروا وتبدلوا، فكم أنا نادم على كل لحظة صرفتها في التفكير فيهم، أو شغلتها في البحث عنهم.

وما زلنا نتعلم.. وهنا أعود إلى عنوان المقال، فأقول: إن الصداقة فعلا يمكن أن تموت، لكنها عند الأصيل لا تموت.. أما الخسيس فما أهونها عليه!

السياسة عالم مهين

عالم السياسة عالم بغيض، ولا يخوض غماره إلا أشخاص ذو سمات وصفات فولاذية، يستطيعون من خلالها تحمل المشاق من دروب الخصومة والشقاق والإتهامات والإشاعات والكراهية والبغض والدسائس والمؤامرات والأكاذيب والخداعات والمقالب.. ولكن هل ياترى يمكن لأهل الفكر والأدب والعلم، أن يخوضوا هذه المسالك الوعرة، وأغلبهم أرق الناس أفئدة وبصيرة وحسًا وشعورًا؟

لقد خاضها كثير منهم فلم يجنوا إلا كثيرًا من الغرم والغم حتى اعتزلوها وتابوا عنها! ولعل **العقاد** خير نموذج في هذا المجال حينما طلقها بالثلاثة، وتفرغ **للعقاد** الجديد والمختلف، عقاد الفكر والأدب والشعر والتأليف! ولعلى هنا أسوق بعض الأمثلة لما تعرض منهم بسببها إلى خداعات ومقالب أساءت لهم ولم يستطيعوا الإفلات من تهمتها.

كان الشاعر المرحوم «حفنى ناصف» من أظرف شخصيات الجيل الأسبق، ومن أكثرها تدبيرًا للمقالب الساخنة.. وأشهر مقالبه ما دبره للمرحوم «توفيق البكري» شيخ السادة البكرية، وكان الشيخ على علاقة سيئة بالخديوي «عباس حلمى الثاني» الذي كان يتهمه باستمرار أنه يدس له لدى السلطان العثماني، ولدى الصدر الأعظم في اسطانبول،

كما اتهمه بأنه هو الذي حرض «مصطفى لطفى المنفلوطى» على كتابة قصيدته التى هاجم فيها الخديوي وكان مطلعها:

قـدوم ولكـن لا أقول سعيد ❋❋ وملك وإن طال المدى سيبيد

ولما كان «حفنى ناصف» من أصدقاء الخديوي فقد فكر في تدبير مقلب ساخن لشيخ السادة البكرية، واعتمد في ذلك على معرفته بنفسية الشيخ، الذي كان شديد الثقة بمواهبه الأدبية ومعلوماته وشاعريته الفذة. وفي أحد الأيام قال له **حفنى ناصف**: هل تبارينى في الشعر؟ وما كاد يتم الكلمة، حتى قامت قيامة الشيخ، واستفزه أن أحدًا يظن نفسه يستطيع كتابة شعر أفضل من شعره، وصاح **بحفنى ناصف** أن يختار أي موضوع يرغب في المباراة فيه، وليثق بأنه مهزوم.

وتظاهر «حفنى ناصف» بالتفكير، وأخذ يستعرض أغراض المشعر، ويهون من شأنها، ثم اقترح في صيغة التضعيف أن يتباريا في مدح رذيلة اللواط بالفتيان، وتفضيلها على غيرها من ضروب المتعة الطبيعية.. هذا إلا إذا كان الشيخ لا يعرف الكتابة فيها، وصاح الشيخ مستفزًا: كيف؟ وأبدا استعداده للكتابة على الفور، وأخرج ورقة وقلما وأخذ يمدح هذه الرذيلة، ويستطرد ما شاءت له شاعريته، وعندما انتهى أكـد له حفنى ناصف، أن شاعريته لا تبارى.. وأخذ ما كتبة معه، ووصلت القصيدة إلى الخديوي عباس، فسر بها سرورًا عظيمًا، وأخذ يشهر بالشيخ في كل مكان، وكان «البكري» معروفا بصلته بدار المندوب السامي،

فتعمد الخديوي أن يعـرض القصيدة على «اللورد كرومر» ومن يومها لم يُدع شيخ السادة البكرية لأي حفلة من حفلات اللورد.

وفي عام ١٩١٣م حدث أن رشح المفكر الديمقراطى «أحمد لطفى السيد» نفسه لعضوية الجمعية التشريعية، في إحدى دوائر مديرية الدقهلية -وكان أيامها رئيسا لتحرير الجريدة، ومن أعيان الناحية المعروفين ـ وهو ما أقلق منافسه «عثمان سليط» وجعله يوقن أن الدائرة سوف تطير مائة في المائة.. وكاد سليط، يتنازل يأسًا من الفوز، لولا أن صديقًا له أقنعه بأن هناك وسيلة تقضى على منافسه، وعلى الفور اختار مجموعة من أعداد الجريدة، التى تحمل مقالات «لطفى السيد» في الديمقراطية، ومساواة الرجل بالمرأة، وبدأ الاثنان يطوفان بالدائرة، فإذا ضمهما مجلس، قال الصديق: إن «لطفى بك، كفؤ ونزيه.. بس يا خسارة! فإذا سأله الحاضرون: على ايه يا سيدنا البيه؟

قال: لو ماكنشى ديمقراطى، وينشط أحد أنصار «لطفى السيد، إلى دفع الاعتراض، متسائلا عن عيب «الديمقراطية»، عندئذ يقول الصديق: ألا تدري ما هى الديمقراطية؟ إنها مصيبة على الدين وعلى العادات! ألا يطالب لطفى بك بمساواة المرأة بالرجل؟ طيب أليس من حق الرجل أن يتزوج بأربع نساء؟ فإذا تساوت المرأة والرجل في الحقوق .. ألا يكون معنى ذلك أن تصبح للمرأة نفس حقوق الرجل، فتتزوج هى الأخرى بأربعة رجال؟ إذا كان هذا يرضيكم يا حضرات الناخبين، فانتخبوا صاحب هذا الرأي المخالف لدين الله وأحكام الشرع وعادات المسلمين

وبعد هذا يناول الصديق السامعين أعداد «الجريدة، ليقرؤوا ويتأكدوا بأنفسهم من صدق الكلام، وهو ما كان ينتهى عادة بإلقائها على الأرض مصحوبة بكلمات نعوذ بالله إن هذا لكفر صحيح.. وأصبح «لطفى السيد» من يومها معروفا باسم «لطفى الديمقراطى» إذا جاءت سيرته تصاعدت على الفور كلمة: لطفى الديمقراطى -إخص.. دا ديمقراطى- يدعو لاستباحة الأعراض، واختلاط الأنساب والخروج على أحكام الشرع الحنيف ولم تكن المسألة في حاجة الى مجهود بعد ذلك، فقد طارت الدائرة.

فن قراءة الوجوه

قراءة الوجوه فن من الفنون، ومهارة من المهارات التى لا يتقنها أو يستوعبها إلا أهل الإلهام والحكمة من جانب، وأهل الولاية والوصل والمعرفة من جانب آخر.. فهم في شفافية وفراسة تكشف لهم المخبوء خلف أعين الناس ولحم وجوههم.. ولا شك أننا نعد مثل هذه القدرات من باب المعجزات، أو الخوارق التى لا يؤتيها إلا المعجزون من الرجال.

وهناك من الناس من لا يحتاج الأمر لماهر أو واصل أو متفرس حتى يقرأ وجهه.. فإن وجهه يفضحه، ومكتوب عليه حاله ومآله، ومن الناس كذلك من يخدعك وجهه، فيبدو عليه أنه قليل تافه لا قيمة له، بينما هو عظيم من العظماء، وقامة تعتز بها القبائل والأوطان، أو هو ممن عناهم النبى الكريم: رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره، وعلى العكس نجد من أصحاب الهيئات الفخمة من هو خاو النفس والعقل والحلم، كذلك الرجل الذي دخل على **الشافعى** فهابه واستحى منه فاستوى في الجلوس، فلما تكلم أمام **الشافعى** رأى عجزه واستخف بحقيقته، وقال قوله المشهور: آن للشافعى أن يمد رجليه.

ومن الناس من تظهر الريبة على وجهه إذا ارتكبها فقط، كذلك الرجل الذي وقع في الزنا فدخل على عثمان بن عفان فقال: مالى أرى الزنا في وجه الرجل؟ بل كانت قراءة الوجوه إحدى الدلائل التي تريح طلاب

الهداية في الحكم على صدق النبى الكريم -صلى الله عليه وسلم- كما فعل عبد الله بن سلام حينما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة فجاء لينظر إليه وقال: فلما استثبت وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب"

وكان رسولنا الكريم من قراء الوجوه، ومما قاله في (الحطم) الذي قتل مرتدا، واسمه شريح بن ضبيعة الكندي - أتى النبى -صلى الله عليه وسلم- من اليمامة إلى المدينة، وكان النبى -صلى الله عليه وسلم- قال لأصحابه: "يدخل عليكم رجل يتكلم بلسان شيطان"، ثم خرج من عنده، فلما خرج قال عليه الصلاة والسلام: "لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقبى غادر، وما الرجل بمسلم"

ولعن الله هذه الوجوه التى تخفى حقيقة أصحابها، فتلقى أحدهم لتجده يرسم على وجهه رقى الخلق ونبل الأصل وطيبة المعدن، وصفاء النفس وعفة الروح، وهو من أخبث الخلائق وأحط الناس، وكان مما يزعمون في ذلك الشأن: "الشَعر الناعم يدل على الجبن، بينما الشعر الخشن يدل على الشجاعة". "الوقاحة تبرز من العيون المفتوحة ذات الجفون المحتقنة" بينما يعتبر الأنف العريض دليلاً على الكسل، كما هو الحال في الماشية. الشفاه الممتلئة رآها الفلاسفة علامة على الحماقة، أما أصحاب الشفاه الرقيقة فهم في العادة فخورون بأنفسهم كالأسود، كما يقولون.

والقرآن الكريم كان سباقا إلى هذه الحقيقة التى ترشد إلى قراءة النفوس من الوجوه.

(وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلًا ظل وجهه مسودًا وهو كظيم) (الزخرف:17).

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيم عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيم) المطففين: (22: 24)

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) الفتح: (29).

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ) الحج: (72).

ولله در القائل:

لا تسأل المرء عن خلائقه ** في وجهه شاهد من الخبر

يقولون إن هناك خمسة أنواع من أشكال الوجوه يجب عليك معرفتها، ومنها: الوجه المستطيل: يتسم أصحاب هذا الوجه باللياقة البدنية والعضلات، ويميلون إلى النرجسية وبعض الإشكاليات في علاقاتهم، ويتسم نمط تفكرهم بالعملية والمنهجية.

الوجه المستدير: من المعروف عن أصحاب هذا الوجه الحساسية والرعاية، وهم أذكياء جداً، ويتميزون بالدبلوماسية، ويعانون

من بطء في عملية صنع القرار، كما أنهم حالمون، ويسعون لعلاقات مستقرة وطويلة الأجل.

صفات صاحب هذا الوجه: ذكى، دبلوماسى، لديه ذهن تجاري، قابل للتكيف، متفائل، يميل إلى الرعاية، حساس، حدسى، حالم.

الوجه البيضاوي: يتمتع صاحب هذا الوجه بشخصية متوازنة إلى حد ما، جميلة وساحرة، دبلوماسية جيدة، تعانى من ضعف في القوة البدنية، تكون غير منطقية قليلاً في بعض الأوقات.

صفات صاحب هذا الوجه: معدل الذكاء مرتفع، يتصف بالكمال، اللياقة البدنية ضعيفة، جريء، رائد أعمال، جيد في صنع القرار، ملتزم بالانصياع للقواعد.

الوجه القلب: معظم الأشخاص الذين يمتلكون الوجوه على شكل قلب ليسوا مولعين جداً بالعمل في الهواء الطلق، ويفضلون قضاء أوقاتهم في التحليل واكتساب المعرفة.

صفات صاحب هذا الوجه: مفكر، زعيم، مسؤول، فلسفى، محب، مثالى، يهتم بالمعرفة أكثر من المال.

الوجه المربع: يعتقد أن هؤلاء الناس لديهم عقل ذكى وتحليلى وحاسم، ويرتبط شكل الوجه بالطبيعة العدوانية والهيمنة عكس الحقيقة.

صفات صاحب هذا الوجه: منهجى، عملى، محافظ، هادئ، موثوق، حذر، يبحث عن الاستقرار.

الوجه المثلث: أصحاب هذا الوجه رقيقون، ويملكون إقناعًا فكريًّا، ولديهم قدرة على التفكير المبدع، ويتميزون بالفكاهة والضحك وحب المرح.

صفات صاحب هذا الوجه: منفتح على الخارج، مسلٍّ، مزاجى، يحتاج إلى جمهور، يتمتع بشخصية مرحة.

ولكننا نؤمن أن الطبيعة والبيئة والتربية هى الحكم الفصل في تكوين الإنسان وإعداد طباعه، وليس للخلقة شأن في هذا.

ما أروع الظلم !

هى جملة قد ينطقها بعض من يحبون العدل؟ ولكن كيف لعشاق العدل أن يعظموا الظلم ويمدحوه، وهو في أعينهم وعرفهم وأخلاقهم أعدى أعدائهم، ونقيض سلوكهم، ولدد هواهم؟!

أحيانا كثيرة يتسبب الظلم في رقى العدل، ويخدمه ويمكن له بما لم تمكن له كثير من الإجراءات والسياسات والقرارات، ويا لها من معادلة غريبة، ونظرية متناقضة، يدهش معها العقل ويتأمل في روعها المتأمل! ومع البصر بأحوال التاريخ والاعتبار ببعض أحداثه وصوره ندرك هذا المعنى الغريب، والطور المدهش لعجيب، فنعرف أن الظلم يمكن له أن يكون من أمنع الوسائل التى تخدم العدل وتمكن له، ومما عرف به المنصور أنه كان شديد الشغف بالمال، بارعًا كل البراعة في ابتكار الطرق لجمعه والحصول عليه، بل كان بخيلا ممسك اليد، ومما يذكر أنه قرر أن يبنى خندقا وسورا حول الكوفة، وقرر أن يجمع نفقته من الأهلين، ورغب ألا يفوته أحد منهم، فأمر أن يمنح كل فرد خمسة دراهم، فتقدموا جميعا لأخذ هذه الدراهم، وبذلك تمكن من حصر عددهم، ثم أمر أن يجبى من كل واحد أربعون درهمًا، وقد سجل الشاعر هذه المظلمة بقوله:

يا لقوم ما لقينا ** من أمير المؤمنينا

قسم الخمسة فينا ** جبانًا أربعينًا

ولعل المنصور كان يدرك في قرارة نفسه، أن هذا الظلم وهذا البخل وهذه القسوة على الرعية، مما ينفع ولده من بعده وولى عهده المهدي، فقرر أن يجري حيلة ويمكر مكرًا يستفيد منه ولده من بعده، يتلعب فيها بعقول الناس ويخدعهم في أموالهم، فكان إذا صادر أحدا على مال، وضع ذلك المال في مكان خاص في بيت المال، وكتب عليه اسم صاحبه، فلما مرض مرض الموت، قال لابنه المهدي: يابنى إنى قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه المصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا وليت أنت فأعده إلى أربابه، ليدعو لك الناس ويحبوك.

وهكذا السياسة فلا يهم أن يلقى الرجل ربه وهو على خير، بقدر ما يهمه أن يمكن للولى الجديد، هكذا موازين الساسة وأقدراهم، لا قيمة تقدرها لظروف الناس وأحوالهم، وهكذا يتلعب الخليفة بأقوات الرعية وأرزاقهم، ليكونوا محور خدعة يمكن بها للخليفة القادم.. لقد كانت هذه الصورة من صور الظلم الذي يمكن للعدل، ومن صور الظلم المحمود عند الولى الجديد، لأنها تمكن له في قلوب الرعية، وتجعل الألسنة تسير بحمده وشكره والثناء عليه، ومعرفة الفرق الهائل بينه وبين سلفه الظالم البخيل!.

ولعل من صور الظلم الرائع الذي نتج عنه خير كثير، وحظيت به أمتنا المصرية بما لم تحظ به أمة في التاريخ، هو الظلم الذي كان يعانيه المصريون من الحكم الرومانى قبل دخول الفتح الإسلامى، فإن هذا الظلم هو الذي ساق المصريين أن يعشقوا الإسلام، ويشعروا بالفرق الهائل بين المسلمين العادلين وبين سلفهم المجرمين، كان هذا الظلم سببا أن يذوب المصريون في الإسلام وحياة المسلمين، فتطبعوا بطباعهم،

وتكلموا لغتهم، وأحبوا رموزهم، ولم يستطع شعبا من شعوب الأرض تقبل الإسلام ولغته وقيمه وأهله بهذه السرعة كما تقبلها المصريون، ولا يرجع هذا لجمال الإسلام وحده، وإنما لبشاعة الظلم والقهر الرومانى، الذي أشعر المصريين بروعة هذا القادم الجديد.

انظر للفرق بين المصريين والفرس، لقد جعلوا من أنفسهم في ثأر مع الفتح الإسلامى بعكس المصريين، ثأر قومى أو شعوبى، فاحتفظوا بلغتهم وطبائعهم، ولم يذوبوا في أحضان الإسلام بالصورة الكاملة، كما فعل أهل مصر، بل نتج عن هذا الثأر مقتل الخليفة العادل عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-، وظلت فئات كثيرة من الفرس تحيق بالإسلام وخلافته المكر والتلاعب ببيوت الخلافة في عقود طويلة منه، بل حتى التلاعب ببعض علومه ومعالم حضارته.

صور كثيرة في التاريخ تشهد بما يدره الظلم على العدل من كرم وعطاء، أكثر مما يدره عدل العادلون وإنصافهم، وحقا كما قيل: إن في بعض الشر خير!.

ولعلها تكون الصورة الوحيدة، التى يردد فيها المنتفعون ويهتفون: يحيا الظلم.

دفاع عن مصر والمصريين

عاب على بعض الأصدقاء اهتمامى وعكوف حديثى حول الأدباء والمفكرين المصريين، وعدم الالتفات إلى غيرهم من أبناء العروبة النابهين.. بل أشار الزميل أن ذلك عيب المصريين جميعًا، وأنهم منغلقون على أنفسهم لا يبصرون إضاءات الغير، ثم لمس لنا صديقى العذر في هذا العيب، معترفًا أن مصر قبلة المبدعين والمثقفين العرب في كل المجالات وهو العذر في عدم اهتمامهم بنظرائهم العرب.

استشهد صديقى بالأستاذ العقاد -رحمه الله تعالى- وقد كان يستشيط غضبا من الشاعر العراقى الزهاوي، بعد أن ذاع صيته عربيا وعراقيا ووصفه بأنه ليس بشاعر ولا فيلسوف فرد عليه الزهاوي بالمثل من مقهاه الشهير الذي يحمل اسمه، وما يزال إلى يومنا هذا "مقهى الزهاوي" وهناك العديد من الأمثلة.. ولعل ما يعزز هذا الرأي هى المقولة الشهيرة التى ذاعت بين جيل المثقفين العرب ومنهم العراقيون والمصريون وخلاصتها "أن القاهرة تؤلف ...بيروت تطبع ...بغداد تقرأ"

والحقيقة كما نافح صاحبنا بقوله: إن بغداد لا تقل تأليفًا عن القاهرة، إلا أن مشكلة الأدباء والكتاب العراقيين أنهم -باستثناء الوردي- يجنحون إلى الكتابة الأكاديمية النخبوية بما يصعب على العوام

فهم مرادهم بخلاف الكتاب المصريين فإنهم يكتبون بطريقة السهل الممتنع، وبإمكان العوام فهمه واستيعابه، المنفلوطى نموذجٌ.. وإذا كان صاحبى قد ذكر عداء العقاد وهجومه على الزهاوي، فليقل لى: من سلم من هجوم العقاد، لقد هاجم الجميع مصريين وغير مصريين، هاجم الرافعى وطه حسين وشوقى والمنفلوطى وغيرهم كثيرين، بل هناك سمة تكاد تقترن بمن يهاجمهم العقاد، وهى النبوغ والعبقرية، فالعقاد لا يهاجم إلا العباقرة النابغين.. والحق أن هذا الكلام فيه نظر ورأي، وفيه دفاع يجب أن نرده لنجلى صفحة المثقفين المصريين، فالمصريون قد رحبوا واعترفوا وكرموا وأكبروا كثيرا من الأدباء والمفكرين والعلماء، الذين لم يكونوا من بيئتهم ووطنهم، وليس على ما يشاع أبدا من تنكرهم للغير وحربهم له، وهذا المعنى يحتاج لكثير من التذكر والتأمل والتبصر.

لقد كانوا هم أول من أطلق على **شكيب أرسلان** لقب "كاتب الشرق وأمير البيان"، وأطلقوا على **خليل مطران** لقب "شاعر القطرين"، وهم من أطلقوا على **جمال الدين الأفغاني** لقب "حكيم الشرق"، واحتفوا به حفاوة عظيمة لم يجدها في أي بلد دخله وتجول فيه، ولم تكن له من ذكريات تحكى كما حكى عنه في مصر، حيث التف حوله المريدون والتلاميذ.

ثم انظر إلى حبهم ورعايتهم للعلامة الكبير الإمام **محمد رشيد رضا**، الذي بلغ به حب المصريين له أن كان يشتم شيخ الأزهر ويختلف مع بعض الرموز الكبيرة من بيئة المصريين، ولا يعترضه أو ينكر عليه أحد.

بل كيف توجه هذه التهمة العنصرية للمصريين في ميادين الثقافة، وقد ترقى مشيخة الأزهر رجل غير مصري، وهو العلامة الشيخ الخضر حسين تونسى الأصل، وكان له وكيل سوداني وهو الشيخ محمد نور، وشيخ كلية الشريعة الشيخ عيسى منون فلسطينى.. كما رحبت مصر ومثقفيها بكثير من أعلام الصحابة والتجديد كالأستاذ محب الدين الخطيب الذي أنشأ صحيفة في مصر، ومحمد كرد على والنشاشيبى والمغربي وغيرهم ممن لاقوا حفاوة كبيرة من المصريين.. حتى عبد الرحمن الكواكبى المصلح السياسى الكبير، الذي سافر إلى آسيا: الهند والصين وسواحل شرق آسيا وسواحل أفريقيا، ثم إلى مصر حيث لم تكن تحت السيطرة المباشرة للسلطانة العثمانية، وذاع صيته في مصر وتتلمذ على يديه الكثيرون فيها وكان واحدًا من أشهر العلماء.. بل انظر ماذا كان من إشادة بغير المصريين في أدبهم وأشعارهم، فهذا أمير الشعراء شوقى، وليس بعده مما يستدل به، انظر إلى الشوقيات لتجد فيها رثاءات ومدائح لغير المصريين كفوزي العزي، وأمين الريحاني وعمر المختار ومولانا محمد على، وهو ما يعطى دلالة على نفاء هذه التهمة لدى المثقفين المصريين.. العنصرية عموما لا تعرف طبيعتهم معاني العنصرية، فهم أكثر الشعوب التى ترحب بالآخر وتندمج معه، أو تقبل اندماجه معهم، ليشعر ساعة حلوله أنه بين أهله وفي وطنه.

السياسة مقصد الأدباء

في الخمسينات وما قبلها كان عصر الأدب والإبداع، وقدر لهذه الحقبة أن يظهر فيها عدد من النوابغ قلما أن يجود الزمان بمثلهم، كان بعض الأدباء يتزلفون العمل السياسى كطريق لانتشار أدبهم والترويج لمؤلفاتهم، وكذلك كان الساسة والأحزاب يتبنون الأدباء والكتاب، حتى يكونوا ألسنتهم الصادحة التى تزود عنهم أو تسير صحفهم، وهو ما لفت إليه (زكى مبارك) حينما كان يشكو حاله وفقرة وقلة حيلته، ويعرّض بأستاذه (طه حسين) ويكتب عنه أنه لم يظهر أدبه إلا لأنه يتزلف للسياسيين فيقول: "أنت لم تترك حزبًا إلا خدمته، ولا جريدة إلا توددت إليها" ثم يعقد المقارنة بين حاله وحال أستاذه، فيؤكد على هذا المعنى مرة أخرى:"قضيت دهري بلا نصير ولا معين، وسأظل كذلك طول حياتي، لأقيم على أن من يستنصر بالله لا يخيب ولا يضيع"

ثم يشكو ما هو فيه من إهمال وعوز فيقول:" إن راتبى في وزارة المعارف ضئيل، وأنا أكمله بالمكافأة التى آخذها من البلاغ أجرا على مقالات لا يكتب مثلها كاتب ولو غمس يديه في الحبر الأسود، إن بنى آدم خائنون تؤلف خمسة وأربعين كتابًا، منها اثنان بالفرنسية وتنشر ألف مقالة في البلاغ وتصير دكاترة، ومع هذا تبقي مفتشًا بوزارة المعارف".

كثير من الأدباء في تلك الحقبة لم يكونوا أسيري أدبهم وهوى إبداعهم، وإنما كانوا يسخرون أدبهم للحالة الرائجة في المجتمع حتى يظل ذكرهم قائمًا في الساحة الثقافية ويكونون فرسانًا للميدان بآرائهم وسطورهم، وحتى تروج سلعتهم فيتكسبون منها، ولا يلاحقهم الفقر والتلف، فالنشر كما أشار (نجيب محفوظ) هو المجد كل المجد في تلك الأيام، وكان الجميع يكتب في الأدب والروايات والنقد والترجمات والصور الأدبية المتنوعة، ولم يكن لهم شيء من الكتابة الدينية والتوجه الإسلامى، فلما قامت الصحوة الإسلامية في المجتمع المصري وأوجدت قطاعًا عريضًا من المتدينين، وطالبى الثقافة الإسلامية، بدأ توجه الأدباء للكتابة في الإسلاميات، فخرجت عبقريات العقاد وإسلاميات طه حسين وهيكل باشا وغيرهم.

وفي حياة أدبائنا صور ونماذج ممن ضيق عليهم الفقر بخناقه، لكنهم صمدوا له ولم يستطع أن يصرفهم عن طريقهم لأنها قد تمكنت منهم إلى حد العلة التى لا فكاك منها، أو الإدمان الذي لا برء منه.. فعبقري كـ(العقاد) فقد بلغ به أمره أن يؤلف كتابا عن (سعد زغلول) حتى يساهم في إنعاش حالته المادية، ويروج لاسمه أكثر وأكثر، وقد قيل إن دار الطباعة التى نشر فيها (العقاد) هذا الكتاب قد أعلنت أن ثمن الكتاب قبل الطبع أقل من ثمنه بعد الطبع بقيمة الثلث، فأقبل المواطنون على شراء الكوبونات التى طبعت لهذا الغرض، وفي أسبوع واحد بيع أكثر من ثلاثين ألف كوبون، فحصل العقاد على ثمن الطبع من الربح واعتمد عليه فترة من الوقت لا تقل عن سنة تقريبا.

وما أكثر الأزمات في حياة (العقاد) فلم تكن لديه ثروة كبيرة يعتمد عليها، أو راتب ثابت من وظيفة ثابتة، وكذلك لم تكن له ثروة ورثها عن أبيه يرتكن عليها، ولم يكن يملك غير مهنة القلم يعيش مما يدره عليه من مال زهيد، فكم من صحيفة عمل فيها وتوقفت، وكم من وظيفة عين فيها وتركها إما انتصارًا لكرامته أو احترامًا لذاته، فيضطر لبيع كتبه ليقتات من ثمنها، وتتفاقم أزمته ويحل به ضيق شديد لا يجعله قادرًا على تسديد إيجار مسكنه في القاهرة، وكاتب مثله وبموهبته وثقافته، كان يستطيع أن يكون ثريًّا لو أنه تملق الحكام وملأ الوزراء والأثرياء، لكنه كان عفيف النفس نزيه اليد.. حتى المناصب كان يعرض عنها، لأنه يعشق قلمه ولا يرضى به بديلا، كان للعقاد مزاج عجيب، فقد كان يكره الوظائف الحكومية وينفر منها، ويطلق على الموظفين (رقيق القرن العشرين)، وقال مرة: "لا أنسى حتى اليوم أنى تلقيت خبر قبولى في الوظيفة الأولى التى أكرهتنى الظروف على طلبها كأننى أتلقى خبر الحكم بالسجن أو الأسر والعبودية"

عمل (العقاد) بوظائف عديدة ولم يعمر بها، في المديريات ومصلحة التلغراف ومصلحة السكة الحديد وديوان الأوقاف وغيرها، فلم يطقها جميعا أو يصمد في أحدها.. لم يكن - رحمه الله - ممن يتزلف إلى السلاطين، ولم يكن ليقبل منهم نعمة أو عطية، ولو قبل وأراد لكان أغنى الناس وأثرى الأدباء والمفكرين، لكنه لم يفعل ذلك تقديرًا لقلمه الذي ضحى من أجله بكثير من متع الدنيا، كل هذا ليكون قلمه عزيزًا ويحيا به شريفًا، ورغم الفقر المدقع إلا أن نفسه لم تضعف أبداً أو تخنع

أمام محنته، ولعل هذه الرغبة في دنيا النبل، هى التى دفعته أن يهجر السياسة والسياسيين، والدوران في فلك الأحزاب، والانتصار لزعمائها.

تروي الدكتورة نعمات أحمد فؤاد:"كان فريق من كبار رجال الصحافة أعضاءً في مجلس الشيوخ، وأريد الإنعام عليهم بالباشوية، ولكن القانون يحرم عليهم أن يحظوا بهذه الرتب أو غيرها من النياشين، لأنهم أعضاء في البرلمان، فتم الاقتراح عليهم أن يستقيلوا من المجلس ثم ينالوا الباشوية ثم يعاد تعيينهم مرة أخرى في المجلس.. لقد قبلت الأغلبية منهم الاستقالة لتظفر بالباشوية كخليل ثابت وأنطوان الجميل وغيرهم، ولكن واحدا فقط من هؤلاء رفض هذا الإنعام السامى، إنه العقاد.

حتى عقب الإفراج عنه من السجن، أرسل القصر إليه من يغريه بمنصب مدير الإدارة العربية في القصر، لكنه رفض كذلك، ثم عرض عليه منصب مدير دار الكتب، فرفض ثم مديرًا للجامعة فرفض، ثم الوزارة في حكومة الإئتلاف السعدي لكنه رفض كذلك، وعرض عليه غير ذلك من الوظائف الكثيرة والمهمة، لكنه رفضها حفاظا على قلمه وما يدره عليه من متعة وقيمة لا تضارعها قيمة.

التهمة.. يهودي!

بعض الناس حينما يريد أن يشوه صورة خصم له أو يثير حفيظة الناس عليه، فما عليه إلا أن يدعى أن أصله يهودي.. ويدلل على هذه الفرية بما شاء من بواعث الإتهام.. لأنه يعلم أن هذه التهمة وحدها، كفيلة بازدراء الموسوم بها، أو التحسس من معاملته، أو النظرة لها بعد إطلاقها عليه بأي نوع من الاطمئنان.

والحق أنها عنصرية يرفضها الإسلام ويستنكر إطلاقها أو التسليم بها، فليكن هذا المتهم أصله يهوديٌ أو كافرٌ أو أي ملة من الملل، ولكن ماذا عنه الآن وكيف حاله وما موقعه؟ إنه مسلم موحد بالله ملتزم بتعاليم الإسلام، ولقد جاء في الحديث الشريف أن الإسلام يجب ما قبله، ولربما نتعجب حينما تصدر مثل هذه التهم العرجاء وتطلق على أئمة في الدين والعلم وأناس لهم في الدعوة قصب السبق والفضل العظيم.

وهذه التهمة سياجها وحظ الناس معها قديم قديم، ضارب بعمقه في تاريخ الإسلام.

حتى عصر النبى - صلى الله عليم وسلم - فقد بلغ صفيةَ أن حفصةَ قالت: "بنتُ يهوديٍّ فبكت فدخل عليها النبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- وهى تبكى فقال ما يُبكيكِ؟ فقالت: قالت لى حفصةُ إنى ابنةُ يهوديٍّ فقال النبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- إنك لابنةُ نبيٍّ وإن عمَك لنبيٌّ وإنك لتحتَ نبِيٍّ فبِمَ تفخرُ عليك؟ ثم قال اتقي اللهَ يا حفصةُ.

ولعل هذا يعود لما تكونت به فكرة المسلم عن اليهود، فهم أخبث الناس وأكثرهم شرا وكيدا للإسلام والمسلمين، أي أنهم في تصور المسلمين رمز الشر.. ولقد بلغت الحساسية القديمة أن صار المسلمون يتحسسون من أي يهودي حتى ولو حسن إسلامه وهو ما تناول به بعض الرواة متشككين في الصحابي الجليل عبد الله بن سلام وكعب الأحبار لأن أصلهما يهودي.. وعبر العصور الإسلامية تتعجب كثيرا حينما أراد خصوم الإمام ابن رشد أن يشوهوا صورته، فلم يجدوا إلا ذات التهمة لينعتوه بها، حتى يجسدوا أمام الناس شره ومكره وسوء منهجه.

الرجل الذي يعد مفخرة الأمة الإسلامية لم يجد حساده ومبغضوه غير هذه التهمة لتكون أقصى ما يعمدون به لتشويه سمعته، فقد حاول بعض هؤلاء الحساد أن يطعنوا فيه بعد نكبته وخلافه مع الخليفة، وحكم الأخير عليه بالإقامة الجبرية في قرية (أليسانة) بجوار قرطبة، والتى كانت مسكنا وتجمعا لليهود، فقالوا: إن الخليفة نفاه إليها لأنه ينسب إلى بنى إسرائيل، وأنه لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس.. وكان هناك مبعث آخر لهذا الاتهام وهو أن أغلب الأطباء والفلاسفة في الأندلس من أصل يهودي أو نصراني، وهو مما عضد التهمة وساند الشبهة.

وأنا لا أعلم ما الحرج في أن يكون أصله يهودي، ولكنه أسلم وحسن إسلامه وزاد على هذا بأن كان من العلماء والفقهاء الذين أفادوا الدين والدنيا وقدموا الكثير من ثمار عقولهم وطرح إبداعهم.. إن إحياء

مثل هذه الأقاويل هو منكر يرفضه الإسلام وعنصرية بغيضة لا يعترف بها.

وفي العصر الحديث كان أبرز من استخدم هذه التهمة وأشاعها هو الأستاذ العقاد، حينما كان وفديًّا متعصبا، ورأى أن جماعة الإخوان المسلمين صار لها نفوذها الشعبى الذي بدأ يسحب البساط من تحت حزب الوفد، فعمد العقاد وكان وقتها كاتب الوفد الأول، إلى تشويه الجماعة ووصف مرشدها حسن البنا بأن أصله يهودي مغربي.. لأنه ووالده مهنتهم تصليح الساعات وهى مهنة اليهود في المغرب، لأجل هذا التواؤم في المهنة يرجع أصله لليهود.. والحق أن هذا الاتهام لا أعلم كيف صدر من الأستاذ العقاد الذي له رأي وعقل يحترم، ولا يمكن أبدا تحت أي ضغط أو رغبة أو هوى أن يميل عن الحق من أجله، فكيف يغيب عنه نسب حسن البنا؟ ألا يعلم من يكون والده؟ إن والده من أكبر علماء السنة في عصره، بل لم يكن مجرد عالم عادي يروي السنة وينشر علومها في الآفاق محدثا راوية، ولكن الرجل ترك تراثا عظيما يعرفه علماء التخصص بأنه عمل ضخم غير مسبوق، وهو ترتيب وشرح مسند الإمام أحمد بن حنبل والذي سماه (الفتح الربانى في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى) رجل بهذا العلم وهذه القدرة وهذه القدم الراسخة في خدمة الإسلام والسنة، يتهم هو وولده بأن أصولهم يهودية؟ كيف هذا؟ وحتى إن صار فما الضير إذن أن أصولهم يهودية ثم أسلموا وحسنوا إسلامهم وصاروا من خدم هذا الدين؟!

لقد كان الامام القاضى أبو زرعة بن إبراهيم أول قاض للشافعية في مصر في دولة ابن طولون، عام 284هـ وكان جده يهوديًّا

وأسلم.. وفي كتاب الأذكياء لابن الجوزي كما نقل الدكتورإبراهيم عوض في كتابه عن ابن رشد عن ابن الأشعث قال: سمعت أبى يقول: كان هارون الأعور يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وحفظ القرآن وضبطه وحفظ النحو.. فناظره إنسان يوما في مسألة فغلبه هارون، فلم يدر المغلوب ما يصنع فقال له: أنت كنت يهوديا فأسلمت.

فقال له هارون: أفبئس ما صنعت؟

أي هل ما فعتله شيء بئيس مرذول؟

بل لا أبالغ إن قلت لك: إن بعض اليهود الذين أسلموا كان لهم أعظم الفضل على أمتنا، بل قاموا بخدمتها أعظم قياما وقدموا لها أعظم ما يعينها على حفظ الدين والملة.. فهذا الأزهر الشامخ الذي تعتز به الأمة الإسلامية وهذا أثره في نشر العلم وتخريج العلماء، فهل تدري من أقامه وأنشأه وأسسه، ومن هو صاحب فكرته؟ إنه رجل كان في أصله يهوديًّا على غير ملة الإسلام؟!

نعم وبكل اندهاش وتعجب.. فمن صنع هذه المدرسة العملاقة، التى ظلت على مدار أكثر من ألف عام شامخة عالية رفيعة كريمة، تدفع بالعلماء، وتخرج الدعاة الذين أرسوا معالم الهداية والنور في جنبات الدنيا، رجل كان في أصله يهوديًّا.. لكنه اهتدى للإسلام وصار رفيع المكانة علمًا وقدرًا وجاهًا..

فما الحكاية وما القصة؟!

إنه الوزير الأجل كما كان يلقبه الخليفة الفاطمى العزيز بالله، واسمه (أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلّس) واسمه يدل على ذميته، وكان يهوديًا نشأ في بغداد وغادرها في شبابه إلى الشام، حيث عمل بالتجارة ولما أثقلته الديون وعجز عن أدائها، فر إلى مصر في عهد (كافور الإخشيد) واتصل به وصار من رجاله، وأقام ببعض المهام المالية بخبرة وبراعة، وكثرت أمواله حتى أعجب به كافور، ولما بلغه أنه قال عنه: (لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا) رأى الإسلام أفضل الطرق لتحقيق طموحاته، فدرس قواعد الإسلام وأصوله سرًا، ثم أعلن إسلامه، حتى علت مراتبه وقويت أواصره واشتهر أمره وقويت منزلته، ولكن بعض وزراء البلاط خافوه، ولم يعجبهم تقدمه ولم يرق لهم نفوذه، وتوجسوا من مستقبله شرًا، فدسوا له الدسائس وأوغروا عليه الصدور، فنظر في أمره وعلم أنه أوقع به، ففر هاربا إلى المغرب عام (357) هـ، ولحق بالمعز لدين الله الفاطمى، والذي كان في هذا الوقت يتجهز لغزو مصر، ولقيه المعز بحفاوة كبيرة، وقدر فيه مواهبه وملكاته، واستعلم منه أنباء مصر وأحوالها ومواطن قوتها ومكامن ضعفها، وظل معه حتى تم فتح مصر، فولاه المعز الخراج والأموال والحسبة والأحباس وسائر الشؤون المالية، وعهد إليه بشؤونه الخاصة، ولما توفي المعز عام (٣٦٥)هـ، تولى بعد ولده العزيز بالله الذي كانت منزلة ابن كلس عنده أفضل من منزلته في عهد أبيه حتى أنه لقبه بـ(الوزير الأجل) وصار أقوى رجل في الدولة.

قال عنه الذهبى: "وكان عالى الهمة، عظيم الهيبة، حسن المداراة، داهية، ماكرًا، فطنًا، سائسًا، من رجال العالم فكان من أنبل الوزراء،

وأحشمهم، وأكرمهم، وأحلمهم " لم يكن (ابن كلس) كما ذكر عنه وزيرًا وسياسيًا فقط، بل كان عالمًا وأديبًا كبيرًا، محبا للعلم والعلماء، وكان يَعقد بداره مجالس علمية وأدبية دورية، ينتظم في سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء، ويُشرف عليها بنفسه ويهتم بروادها ويغدق عليهم العطاء، ولم يكن محبًا للعلم فقط، بل كان من المؤلفين والمصنفين حيث وضع كتابًا في القراءات، وكتابا في الفقه، وكتابًا في آداب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكتابا في علم الأبدان والصحة، ومختصرًا في فقه الشيعة، وكان يُناظر العلماء ويقرأ كتبه بالأزهر الشريف.. جلس ابن كلس في رمضان عام (369)هـ وقرأ على الناس كتابا ألفه في فقه الشيعة وهو الكتاب المعروف بـ(الرسالة الوزيرية) وكان الناس يلتفون حوله ويهرعون إلى سماعها، حتى جاء تفكيره بعد ذلك في اتخاذ الجامع الأزهر معهدًا للدراسة المنظمة المستقرة، فاستأذن الخليفة العزيز بالله في أن يُعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس، يحضرون مجالسه ويلازمونه ويعقدون مجالسهم بالأزهر في كل جمعة وكان عددهم (37) فقيها ورتب لهم العزيز أرزاقًا وجرايات شهرية حسنة، وأنشأ لهم دارًا للسكنى بجوار الأزهر وكرمهم وشرفهم وأعطاهم كذلك (ابن كلس) من ماله الخاص، وكانت هذه الخطوة هى البداية الأولى للجامعة الأزهرية، والانطلاقة الكبرى للمعهد العلمى العريق.. كل هذا كان بفضل الوزير (ابن كلس) وبعد نظره وحبه للعلم.

وختامًا أقول: مرحبا بكل من كان أصله يهوديا وقدم للإسلام مثل ما قدم هؤلاء.

التاريخ الأدبي يرحمكم الله

الدراسة تمنحك كثيرًا من الفهم والإدراك، وتساعدك بشدة أن تفهم فهمًا سليمًا، وتعى وعيا دقيقا بكل ما يقال حولك ويُطرح أمامك، بل إنها تعصمك من الخطأ والزلل والتقول بأمور خارج نطاق المكتوب الذي تقرأه عينك.. وهكذا درسنا مادة التاريخ الأدبي أو تاريخ الأدب في المراحل الثانوية الأزهرية، درسناها بتوسع فائض، وعلى مقررات لأعلام اللغة من أساطين الأزهر الكبار كالدكتور الفذ **على العماري** وغيره من العباقرة، لقد أدركت أهمية هذه المادة باكرًا وكان من فرط حبى لها جمعت كتبها الأربع في مجلد واحد، مازال في مكتبتى إلى اليوم.. لقد استفدت من هذه المادة كثيرا في التاريخ والنقد والتحليل وهو ما دعانى أن أتحدث اليوم عن أمر مريب.

منذ أيام تحدثت في مقال تحت عنوان (كلا لم يتب) وكنت أعنى به الشاعر المرموق المعروف، **الحسن بن هانئ والملقب بأبي نواس**، والذي كان مع جودة شعره وبراعة نظمه، آية من آيات المجون إن كان للمجون آيات، ولكن بعض الناس ممن لا دراية لهم بهذه المادة الكبيرة، أخذوا يعترضون على بأقاويل غريبة ومفاهيم مستعجمة فيقول لى بعضهم: أمره عند ربه، الله وحده من يحاسبه، مالنا وحاله مع الله..

إلى آخر هذه المقولات المدهشة التى تثير العجب وتجعل المرء يضرب كف الحيرة على كف الفزع.. بل إن بعضهم اتصل بي وحاول أن يفهمنى أن ما كتبته أمر تافه فماذا يفيد أن الحسن تاب أم لم يتب، مالنا ولهذا الأمر الذي لا يفيد بشيء، والحقيقة أنا لم أستطع الرد، لأن هناك من الأمور والحجج من لا يستطيع المرء أن يردها لولوغها وشرودها عن المعرفة الحقيقية.. بل إن ثالثا استنكر على ردودي على الأصدقاء بأن ذلك المقال يتبع علم التاريخ الأدبي، واعتبرها جملة مستهجنة وجدالًا مذمومًا، ومحاولة للهروب من نقد الجمهور، ولما حاولت تفهيمه، ظننى أجادل بباطل وطالبنى بالكف.. وسبحان الله لقد تخيلت وقتها حال **جاليليو** وهو يخبر الناس بحقائق العلم، ثم يحكمون عليه بالزندقة والإعدام، بل تخيلت حال زرقاء اليمامة، وهى تخبر قومها بما رأته عينها للشجر الذي يمشى، ثم يكذبونها ويرمونها بالجنون، وكان في تكذيبهم هلاكهم.

نعم عشت هذه الحالة على مدار ساعات متتابعة، كيف أفهم الناس أن ما كتبت أمر مهم ليس بتافه، يُسهم في فهم نفسية شعر شاعر كبير من أعظم الشعراء العرب نظمًا، وأفسدهم قيمًا، وتوقفنا على مزاجه الغريب وحالته النفسية التى اختلط فيها شعر الهداية بشعر المجون، فنكون أقدر على فهم نفسية وغرض وطبيعة الشاعر وما ماجت أو هاجت به نفسه؟

ومن المحزن أن بين المعترضين كتاب وطلاب أدب، وهو ما دفعنى للسؤال بحيرة: كيف يسلكون تيار الأدب وهم جاهلون بهذه المادة المهمة في صنع الأديب والناقد؟ هذا لا يجوز، ولعل هذا يشير إلى أن

الأديب لابد له من ثقافة واسعة حتى يعى كثيرًا مما يطرح فيما يهوى ميدانه.. مالنا يا قوم وحديث الإيمانيات والروحانيات والمصائر التى تنطلق بالعبد إلى الجنة أو النار؟! كيف خلط الناس حديثى بهذه الناحية، وهل تراني أكون أنا الذي أخطأت ابتداء، حينما طرحت مثل هذه الأفكار الخاصة التى لا تتقبلها عقول الذين لم يدرسوا مثل هذه العلوم؟ ربما يكون الخطأ من نصيبى لكن عذري أننى أوضحت هذا الظن في مقالى مرتين، ومع توضيحى للأمر، أرى الناقد والمعترض يترك المقال كله، وينطق بما نوهت عليه وأبديت شرحه للمعترضين، وكأنه يكيدني ويريد أن يقول لى إن ما حذرت منه ما هو إلا هراء.

اعلم أخى الفاضل أن هذا القلم الذي تقرأ له، لا يمكن أبدا أن يكتب في شيء عبثى لا قيمة له.. وإن رأيته يوما يكتب فيما لا قيمة له، فثق أن العيب فيك لا فيه ولا في صاحبه.. ابحث في مواطن نفسك أنت ربما لم تفهم القصد أو تقف على المعنى المنشود.. وحذار – رضى الله عنك– أن تظن أننى أتعالى على أصدقائى أو أتكبر عليهم بعلم.. حاشا لله أن أكون ذلك أو أنتوي مثل ذلك، ولكنها خواطر نفسية أثارتها تصلب المعلقين ورسائل المعارضين.

إن مادة التاريخ الأدبى يا صديقى، وحتى تكون منها على علم وفهم، تتناول حال الشعراء والأدباء والخطباء، وتدرس بيئاتهم وأحوالهم السياسية والاجتماعية التى تسهل على الدارس فهم طبيعة شعر كل عصر من هذه العصور، والتى تساعد الناقد أن يعى مقاصد شعرهم، ولا يستغرب منهم بعض المعاني التي قد يستنكرها مع عصر مختلف.

ومادة التاريخ الأدبي حينما تدرس سيرة وحياة الشعراء والكتاب، فإنها لا تدرس سيرهم فتروي ما طاب من نوادرهم ومآثرهم ونتف أخبارهم فقط، بل إنها كما يقول الباحثون: "تغمر الدارس لها بعلم منظم فيكون ملما بمدى ثقافة هؤلاء الأدباء والشعراء، وتطور حياتهم، وما تأتى لهم من اختبارات واتصالات وأذواق ومشاعر، وما تهيأ لهم من أمزجة ورثوها أو اكتسبوها" ولقد ضرب لنا مثلًا بالمجتمع الجاهلي الذي نشأ أدبه في صحراء وحياة بدوية، ولولا علمنا بأن الحياة في الصحراء حينما يقبل عليها الربيع، فتكتسى الأرض خضرة ترعاها الماشية فتدر ألبانها وتسمن لحومها، ولولا علمنا كذلك بأن المجتمع البدوي تتعارك فيه القبائل ويكثر بينها الغزو والإغارة فيعز المن والاستقرار، لما استطعنا أن ندرك ما قاله النابغة في الثناء على الملك النعمان حينما مدحه قائلا:

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ❋ ربيع الناس والبلد الحرام

لقد أنزل النعمان الممدوح منزلة الربيع، لأنه في الربيع كل الخير للناس، وأنزله كذلك منزلة البلد الحرام لأن فيه الأمن من السلب والنهب وسفك الدماء.. وهكذا أثمرت دراسة البيئة والتاريخ والمجتمع وطبيعة العصر فهما دقيقا لقول الشاعر، تستطيع معه أن تفهم بدقة تشبيهاته واستعاراته وألفاظه ومراميه.

بل كما قيل كذلك عن شعر أبي العتاهية فهذا الشاعر الذي أحب جارية الخيزران أم المهدي، ولم يوفق في هذا الحب شأنه شأن كثير من العشاق، فتصيبة حسرة الحرمان ومرارة اليأس، لتصرفه عن مسلك

المجون، إلى مسلك الزهد، ان إدراكنا لهذه النكسة العاطفية أبانت لنا الحقيقة في شعره، وجعلتنا نقف على طبائع شعره الزهدي.

والحديث يطول ويطول في هذا الشأن، وعلى كل طالب للمزيد أن يتجه للقراءة والدرس والتعلم.

بقى أن نقول لك: إن أبا نواس لم يتب، وأن ما قاله من شعر التوبة والزهد والورع، كانت نوبات إيمانية تصيب الشاعر أحيانا.. ولم تكن توبة كما يظن البعض.. أي أن الرجل رغم مجونه كانت تلمسه بعض لحظات خير فيخلط مجونه ببعض الصلاح.

العلم ليس حكرًا عليك

بعض الدارسين والباحثين والمؤلفين، حينما يتصدر لعمل من الأعمال فيؤلف كتابًا أو يعد بحثًا أو يحقق مخطوطة، ينتابه شعور بأن هذا الميدان الذي كتب فيه، ملك له وحده، وأن أي باحث إذا حاول الكتابة فيه بعده، فمعنى ذلك أنه يعتدي عليه ويبدد جهوده، أو يسطو على سابقته، وكأنه يقول للناس: إن العمل الأول غير واف وغير جدير، والعمل اللاحق، أكمل وأحسن وأوفى منه أو يظن الكاتب الأول ذلك أيضًا.

والحق أن هذا النوع من الاحتكار الثقافي، لا حق للمؤلف الأول فيه، بل هو منحى يضر بالفكر والبحث والمعرفة، أما إذا حاول المؤلف الأول أن يدافع عن عمله، ويتهم ما جاء بعده، بأنه دون مستواه، فهذا أمر لا حق له فيه، وليس من شأنه، وإنما هو حق القراء وحدهم هم فقط من يحكمون عليه بالإجادة أو الضعف.

والحق أن السبب في هذا قد يظهر نتيجة المعايشة والأنس الذي يطال عاطفة الباحث في موضوعه الذي يكتب فيه، فيشعر بعد أن تتلبسه حالة البحث، أن هذا الموضوع ملك له وحده، وليس لأي أحد أن يملك

الحق في الكتابة فيه وعنه! وهو لا شك وهم يقود إلى الأنانية، فعلى الباحث أن يترك العنان للجميع أن يلجوا ميدانه ويعرض كل منهم بضاعته، والقبول فقط لن يكون إلا من نصيب القيم منها.. أما هذه الغيرة التى تثير عداوة وتحدث شقاقًا، فلا داعى لها.. وربما يكون العمل الثاني والمتكرر لم يضف إلا شيئا يسيرا، أو أنه كتب بلغة مغايرة، وأسلوب مختلف، فليكن إذن لأن هذا اليسير ربما يكون إضافة جديدة تفيد البحث، وربما يكون الأسلوب كذلك مما يناسب أذواقا أخرى لم يرق لها أسلوب الكتاب الأول.

منذ فترة كتبت مقالا حول الدكتورة **بنت الشاطئ** التى لاحظت عليها انتقاد أي محاولة جديدة لتفسير القرآن الكريم تظهر على الساحة، كانتقادها لعمل سيد قطب ومصطفى محمود، إذ يبدو أن تفسيرها البياني للقرآن الكريم جعلها تعتقد بأن تفسير القرآن ملك لها وحدها، أو أنها تصورت أن المحاولات الأخرى تنادي بهدم جهودها في هذا الميدان.

منذ قرون مضت قام شقاق بين البدر العينى والإمام ابن حجر، في شرح صحيح البخاري، فقد بدأ ابن حجر عمله في الشرح، ثم جاء البدر مقلدا له وناقدا لأحكامه، مما فسره ابن حجر أنه سرقة وتقليد فاحش، ولا شك أن في شرح البدر جديد في التناول والأسلوب قد أفاد حتى ابن حجر نفسه حينما أجبره أن يعدل كثيرا مما كتب في الفتح بناء على نقد العينى له.. أي أن الكتابة في نفس الموضوع أفادت الموضوع والباحث نفسه، حتى وإن كانت قد أغضبت الكاتب الأول، فقد قيل:

"إن ابن حجر انبرى فألف في دفع اعتراضات البدر على كتابه فتح الباري، فألحق تعديلات بكتابه بعد ظهور عمدة القاري".

في يوم ما جرى حديث بيني وبين أحد الأكاديميين حول تحقيق الدكتور النبوي شعلان لكتاب العمدة لابن رشيق، وسألني قائلا: لماذا حققه وهناك تحقيق للشيخ محيي الدين عبد الحميد، فقلت له: راجع مقدمة الدكتور النبوي في صدر تحقيقه لتعرف الفرق، فالدكتور النبوي لم يحقق الكتاب استدراكًا على تحقيق سبق، وإنما يمكن القول بأن التحقيق الحقيقي للكتاب هو تحقيق الدكتور النبوي، وما فعله محيي الدين كان محاولة نقل الكتاب من الورق الأصفر للورق الأبيض مع إضافة بعض التعليقات والتوضيحات، ومع هذا كشف الدكتور النبوي عن كوارث علمية في تحقيق محيي الدين، وصفها أحيانا بالفضائح العلمية، وأبان فيها عذره للشيخ، لأنه كان يوزع الكتاب على طلاب الدراسات العليا، ليضعوا ملاحظاتهم ثم يدفع بالكتاب إلى المطبعة.

ومما يذكر من مثل هذه المعارك واعتقاد المؤلف في نفسه أنه المتفرد بعمل ما من أعمال المعرفة، ثم وقوعه في حبائل الغيرة والاختصام، تلك المعركة التي دارت بين الشيخ عبد المتعال الصعيدي والدكتور محمد عبد المنعم الخفاجي، فقد قام الأول يشرح الإيضاح في البلاغة للقزويني، وظل متناولا في أيدي الطلاب عدة سنوات، حتى جاء خفاجي ودبج شرحا آخر عرف طريقه أيضا إلى أيدي الطلاب، فقام الصعيدي بمهاجمته وانتقاده بل تعدى الأمر بينهما إلى التجريح الشخصي، وأصدر الشارح الأول كتابا اسمه (تنوير الطلاب) نقد فيه مسلك الشارح الثاني وقال:

إنه عنى بنقل عبارات الحواشي ومماحكاتها اللفظية بأسلوبها الذي لا يليق بعصرنا، فهب الشارح الثاني يدفع الغارة بمثلها، فأصدر نشرات تحمل عناوين مثل « بينى وبين الناقد العالمى البروفسير الأستاذ الصعيدي» و «بينى و بين زعيم المجددين في البلاغة» وقد ذهب في هذه النشرات الى أن الأستاذ الصعيدى خشى من منافسة شرحه الذي كان الميدان خاليا له من قبل .. ومما قاله: «والطريف حقا أن ناقدنا الكبير يرى أن الإيضاح ملك له وأنه كان حجرا محجورا عليه سواء أن يتناوله بالشرح والتعليق، لأن عمل الناقد فيه معجزة الأجيال، ولأنه قد فرضه على الطلاب المساكين فرضا، وحمله إليهم في حقيبته صباح مساء"، وتبودلت النشرات والحملات بين الأستاذين الجليلين كما قيل بعضها في التجريح الشخصى، وبعضها في مسائل العلم، من نحو إسناد بيت من الشواهد إلى غير قائله أو تحريف فيه أو توجيه لقول «المصنف ومما اختلفا عليه: هل مقدمة (الإيضاح) مقدمة كتاب أم مقدمة علم؟

بقى أن أشير إلى أننى حينما ألفت كتابي الأخير عن الدكتور البيومى، علمت أن هناك محاولات أخرى للكتابة عنه من بعض الباحثبن، وأنا أرى أن من الخير والنفع أن أكتب أنا وغيري عن الراحل الكريم، حتى تكثر تلك الوجهات التى تعبر عن كل ملامحه، فهو إذن ليس حكرا على وحدي، بل رحبت كثيرا حينما حدثنى باحث مرموق أنه سوف يعد عن الدكتور البيومى كتابا وعن نفس الموضوع الذي كتبت فيه عنه، وهو ردوده على الشيوعيين والعلمانيين، فلم أجد مناصًا إلا أن أرحب بذلك، لأن هذه الأعمال تخدم الحقيقة وتلبي رغبة الأذواق

المختلفة، ولا شك أنها لا تعدم الجديد الذي يغاير ما كتبت، بل أعدها صوتًا آخر ينضم لصوتي فيزداد قوة ليهتف الجميع بجهود الراحل الكريم، بل إنني أنتظر كتابًا ثالثًا ورابعًا وخامسًا، تسير كلها في اتجاه واحد هو خدمة العلم والدين، ولا أغار من هذا ولا أضيق به.. ولله الحمد والمنة.

عمر بن الخطاب أديبًا

طرحت في مقال سابق رؤية ظننتها جديدة حسب فهمى وظنى، ولكن تعليقات بعض القراء من أصدقائى جعلتنى أستفيق وكأننى بنيت كلامى على وهم وهراء.. وذلك حينما صرحت بأن أم كلثوم أديبة، لما كان لها من مشاهد التذوق السليم وعشقها لعيون الشعر العربى والتغنى بتراثه القويم، وعكوفها مع رامى على قراءة الأغانى كاملا، ومختارات البارودي، وديوان شوقى، وكثير من الشعراء العرب القدامى وتدخلها في تصويب بعض القصائد التى تتناغم مع ذوقها، وهو عمل لا يستسيغه إلا محب للشعر فاهم له، وأعلنت في هذا المقال ما فزع له كثير من الأصحاب وكأننى تبنيت أو دعوت إلى نظرية محدثة منكرة في عالم الثقافة والمعرفة، حينما قلت:

إن محب الأدب ومتذوقه هو أيضا أديب، وأن عملية الأدب لا تكتمل إلا بالمبدع والمستمع المتذوق، وإذا لم يوجد الثانى لما وجد الأول... وخلصت إلى أن القارئ المحب للأدب وصاحب الذوق الرفيع فيه، هو كذلك أديب حتى ولو لم يكن مبدعًا.

فاجأنى صديقى الحبيب أديبنا العالى د. منير لطفى بقوله: (للأديب تعريف مستقر، ولا أرى ضرورة لإقحام ما ليس فيه بحسن نية وبعض حماس.. فالقارئ يظل قارئًا ما لم يحدث بقلمه، على اعتبار أن

الأديب محدث حسب تعريف العقاد)، والحق أن تعليق وكلام أخى الدكتور منير أصابنى بالرعب، لا لاعتراضه على ولكن لأنه أدرج اسم العقاد الذي حول كلامى إلى عبث.

ومرت الأيام وتناسيت الحدث والكلام، مع إيماني الشديد بوجهة نظري، حتى ولو خالفت رأي العقاد العملاق، ثم أبحرت في قراءاتى الأدبية، حتى وجدت ما يدعمنى من الكتاب، بل كانت المفاجأة أنه ليس مجرد كاتب، بل هو إمام من أئمة الشعر واللغة والبيان والنقد، وهو العلامة الراحل د(محمد رجب البيومى) ففى كتابه قطرات المداد وتحت عنوان (عمر بن الخطاب أديبا وناقدا)، تبنى نفس وجهة النظر التى قلت بها، ونفس الدواعى وأخذ يرصد تذوق عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- للشعر ودرايته بمعانيه، ومعرفته الجيدة للشعراء، ورصد البيومى ذائقته القوية، التى جعلته يهتم بالجانب الشعري اهتمامًا كبيرًا، ومن ثم جعله أديبا لمجرد هذا التذوق، ونحن نعرف أن عمر لم يكن يقول الشعر ولم ينطق به.. فهل يا ترى كان ما يذكره البيومى مجرد حماسة وعاطفة لعمر، رضى الله عنه.؟!

إذن أرى أن وجهة نظري قد انتصر لها العلامة البيومى، وأثبت أن الذائقة للقارئ تمنحه كذلك ليشارك الأديب في الاسم والصفة، مع اختلاف الإجراء والطريقة.. ومما ورد في كتاب البيومى الذي لا يمكن الاستغناء عن الرجوع إليه في هذا الأمر لكثرة ما ذكر من استشهادات، نقول نحن الآن ببعضها موجزين: كان عمر -رضى الله عنه- واسع المحفوظات من جيد الكلام حتى قال الجمحى: "ما عرض لابن الخطاب أمر إلا استشهد بالشعر" ولاحظ هنا قوله: استشهد ولم يقل نظم

وهناك فرق كبير بين الجملتين، ثم يقول البيومى، ورجل يملك هذه الثروة من القوافي لابد أن يكون ذا ولوع بالمعانى الجيدة، والأساليب الرائعة، فهو ينظر فيما يسمعه نظرة الباحث الناقد، ثم يحفظ ما يروقه ويعجبه، مستشهدًا به في موضعه، مثنيا على صاحبه بما يستحق من تقدير"

طرح البيومى كلاما هائلا واستدلالات قوية على وجود الذائقة الأدبية لدى أمير المؤمنين، فيقول: إن هذه الذائقة كانت سبب إسلامه، فما أن سمع سحر البيان القرآني حتى خشعت نفسه خشوعًا لم يعرفه من قبل، وما ذلك إلا لشدة تذوقه لروعة البيان.. بل يقال إنه ما اصطفى ابن عباس إلا لعلمه وبراعته في الدراية بالشعر وأنهما كانا يختليان الساعات الطويلة يتناشدان ويتطارحان.. بل كان من شدة تذوقه الأدبي أنه كان يكره الشعراء الذين يذمون الإسلام كرهًا عظيمًا، ويبغضهم بغضًا لا يماثلهم فيه مثلهم من نفسه، حتى أن كراهته لأحدهم قد امتدت حتى بعد إسلامه، فقد كان أبو شجرة بن الخنساء شاعرًا، وارتد عن الإسلام وأخذ يحرض على المسلمين، وكان مما قال:

فروّيت رمحى من كتيبة خالد ❋ وإنّي لأرجو بعدها أن أعمّرا؟

ثم لما أخفق ورأى الناس يرجعون للإسلام رجع معهم وقبله أبو بكر، ولما كان في خلافة عمر جاءه يطلب منه مالًا لفقره وحاجته، فقال له عمر: من أنت؟ فلما عرفه صاح: أي عدو الله! ألست القائل:

فروّيت رمحي من كتيبة خالد ❋ وإنّي لأرجو بعدها أن أعمّرا؟

ونأتي في هذه القصة المشهورة التى يرويها القاصى والداني في عدل عمر وإنصاف عمر، ولكنهم للأسف تناسوا أن يرمزوا بها إلى ذائقة عمر.. والقصة هى قصة المرأة التى غاب عنها زوجها وحينما خرج عمر يعس حال الرعية ليلا فمر ببابها وسمعها تقول:

تطاول هذا الليل واخضل جانبه

وأرقنى ان لا خليل ألاعبه

ألاعبه طورا وطورا كأنما

بدا قمر في ظلمة الليل حاجبه

فوالله لولا الله لا رب غيره

لحرك من هذا السرير جوانبه

مخافة ربي والحياء يصدني

وأكرم بعلى أن تنال مراكبه

ثم دخل على حفصة ابنته أم المؤمنين – رضى الله عنها – فقال: أي بنية كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: شهرًا واثنين وثلاثة وفي الرابع ينفد الصبر، فجعل ذلك أجلًا للبعث، بأن لا يغيب الجند عن زوجاتهم أكثر من هذه المدة.

هكذا كان عمر – رضى الله عنه – أديبًا لمجرد ذائقته وحبه للشعر والأدب ومحاسن القول، ولم يكن من الشعراء والخطباء والناظمين، ومع هذا كله

فقد جعله البيومى أديبًا منتصرا لنظرية الذائقة الأدبية، التى جعلت أم كلثوم من بعده أديبة.

أديب من المنوفية

لم أكن أتخيل أبدًا أن تقودني قدماي وأنا عازم على حضور الندوة الثقافية الشهرية التى يقيمها صالون الصديق والأخ الأكبر الدكتور بسيم عبد العظيم في مدينة شبين الكوم.. أننى سأشهد لحظات أستمع فيها لأديب وشاعر من روائع الزمن الجميل، وكاتب روائى موهوب جعلنى ألمس في حديثه طيف العمالقة الكبار من الجيل الماضى، ممن نعيش على آثارهم ونهتدي بإضاءاتهم.

وبصدق ودون مبالغة، وفي هذا الزمن الذي عز فيه وندر أن نرى أمثال هؤلاء العظماء، استطاع صالون الدكتور بسيم أن يتحفنا بهذه الدرة النادرة التى غمرها بحر النسيان والتجاهل، لمثل هذا الأديب والروائى والشاعر الكبير الأستاذ (أحمد بسيونى) المولود عام 38 أي قارب 85 سنة.

كنت ذاهبا للحضور وفي ذهنى أن أقضى بعض لحظات أستمتع فيها لما يروقنى، أو ألتقى بمن يوافقون هواي واهتمامى وأفكاري من المثقفين والمبدعين، فآنس بهم بدلا من هذا الفراغ الذي يؤرقنى، والفقر الذي يخيم في قريتى الريفية من وجود هذه الطبقة التى أحبها وأستشعر معها بالأنس والجمال.

ولم أكن أتخيل أبدًا أن القدر يقودني لأجالس رجلا وأستمع لأديب من طبقة الأدباء الكبار في جلالهم وروعتهم وأصالة موهبتهم..

كنت أشعر معه وهو يتحدث أن روح القدماء تحاصرنا وتحفنا من كل مكان، وكانت عينى تخيل لى، أن الحكيم وطه حسين والعقاد وحافظ وشوقى معنا حاضرين، نخامر أنفاسهم، وتزاحمنا أجسادهم. لم يكن الرجل ممتعا أو قيما في حديثه فقط، وإنما كان مبهرا وهو يحكى رحلة كفاحه التى خاضها موهوبا في سبيل الثقافة، التى وهب لها وقته وجهده وعزمه وروحه وشبابه.قدم الرجل حياة حافلة بالدروس والعبر، ومحطات مثيرة جديرة بالوقوف عليها والتأمل فيها.بل علمنا ومنحنا من الدروس الحياتية، كيف يسير الأديب والموهوب والمبدع في حياته، إذا ضاقت به الدنيا ولم يجد من يتنبه له.

لقد وقفت حائرًا أمام هذه القامة التى تتحدث، وأخذت أسائل نفسى: كيف تغيب الأعين والأضواء، مثل هذه القيمة السامقة الفريدة؟، وكيف يتجاهل مشهدنا الثقافي هذا الأديب الكبير في الوقت الذي يحفل فيه بمن لا يساوون نصف أو ربع موهبته وإبداعه وعطائه.؟!هل لأن الرجل من الجيل القديم الذي لا يحسن استخدام التقنية الحديثة ووسائلها من الفيس بوك وتويتر واليوتيوب فيعلن عن نفسه وكتبه وصولاته الأدبية المدهشة؟ فينال بعض ما ناله من هم أقل منه وأضأل من مكانته وموهبته وأثره؟!

لماذا لم يلمع اسم الرجل؟ ولماذا لم تحتف المنصات الثقافية بأدبه وموهبته وأعماله المتميزة، ولماذا لم تُقبل عليه القنوات الفضائية وتستضيفه

الصحف والمجلات والأندية؟!لكنها طبيعة أمتنا التى تهدر نوابغها وتتنكر لأفذاذها، ومن ثم فلا عجب ولا تعجب ولا دهش!

أكثر من ثلاثين كتابًا أنتجها هذا الأديب ما بين الشعر والمسرحية والرواية والفكر والنقد، في ظل حياة طويلة محملة بكثير من المشاهد الثرية المدهشة التى كونت هذا الأديب وأثمرت موهبته الفذة، التى تفتقت وبانت ملامحها منذ صغره وصباه، وأدركها هو في نفسه وأخذ ينميها ويستجيب لها ويعمل على إثرائها، لقد بان له أسلوبه المميز وذائقته وموهبته التى تبشر بميلاد أديب له شأنه، لو أنه اهتم بها، وأنمى جذورها ورعى منابتها.. كانت أول هذه البشائر كما حكى لنا وقص من مطالع مسيرة حياته، ذلك اليوم الذي دعته جارة لهم، كان ولدها قد هجرها منذ سنوات وسكن القاهرة، وما عاد يسأل عنها أو يراعيها وهى كبيرة السن، جاحدا منكرا مهملا لأمة ومشاعرها، كانت الأم ملتاعة تتمنى أن ترى ولدها الذي جافاها، إنها تعرف عنوانه وتراسله دومًا ولكن لا مجيب ولو حتى بمجرد خطاب يهدئ به روعها، وذات يوم وجدت أم شوقى الصبى أحمد وهو ابن سبع أو ثمان سنوات، يلعب في الشارع، وقالت له: تعالى يا أحمد انا عاوزاك، فقال لها نعم يا خالتى أم شوقى، هل تعرف تكتب؟ ابنى سايبنى وقاعد في القاهرة ولا يسأل عنى ومحتاجاه يزورني وعاوزاك تكتب جواب لابنى، فقال لها: طبعًا أعرف، وذهب أحمد ليكتب الخطاب وسبكه لها حسب تعبيره، ووضع عليه العنوان وانتهى منه، وبعد أيام كان يجلس في بيته وإذا به يسمع هرجًا ومرجًا وزيطة ومولد وزغاريد تضج من بيت جارتهم أم شوقي، ولما سأل عن هذه

الجلبة، قالوا له: لقد عاد ولدها الغائب، الذي تأثر بخطاب الصبى أحمد من أسلوبه الشجى العاطفى الأدبي الذي حشد له فيه كل عبارات الشوق والشغف والحزن الذي اعتصر قلب أم تتلهف على ولدها.

رجع الولد الغائب وهو يبكى ويطالب أمه أن تسامحه، وتعفو عنه، وتغفر له جفوته وعقوقه، الذي انهار أمام هذه الكلمات التى أرسلتها في خطابها.. وكان الجندي المجهول الذي حقق هذه المعجزة، هو الصبى الموهوب أحمد بسيونى، الذي سعد كثيرًا ومنحته هذه النتيجة أن يثق في موهبته وأدبه، ويعرف أنه أديب يشق طريق الكلمة المؤثرة.. لقد كتب له عن بر الوالدين وفضل الأم، وأرعبه بتعبيراته مما جعله يسارع ليزور أمه.. أما الموقف الثانى فكان ذات يوم وجدته ابنة عمته التى تكبره سنًا وهو في صباه منهمكًا في الكتابة بكراسة له جعل عنوانها الأشقياء، فقالت له: ماذا تفعل يا أحمد؟ فقال لها أكتب خواطري الأدبية، فقالت له: على العموم أنا لا أفهم في هذا الكلام، لكن هاودي الكراسة دي لصاحبتى عواطف هيا بتفهم فى الحاجات دي وفى مدرسة الملعمات وهاتبقى مدرسة السنة الجاية وهيا اللى هاتحكم.

قال لها: لا مانع.. لأنه يتلقف التأييد من أي أحد.. فأخذت الكراسة وبعد أيام جاءت بها، ووجد أحمد أن عواطف قد كتبت على الكراسة هذه العبارات التالية: أجبرتنى أن أكتب إليك رسالتى، فلما أمسكت بالقلم وجدته ينساب على ورقتك الرقيقة معبرا عن عبقريتك التي تفوق سنك، فأضرع إلى الله أن يحفظك ويحفظ لك هذا الإلهام والله

هو الموفق.. يقول: بعد هذه الرواية لقد وعدني الله بأناس يدعموننى ويحمسوننى ويدفعوننى للاهتمام بموهبتى.

وفي مشهد ثالث من مشاهد التحفيز يقول: حينما ذهبت إلى الصف الرابع الابتدائى، كان مدرس اللغة العربية، وكان هؤلاء المعلمون قديمًا يتبنون المواهب ويشجعونها ويهتمون بها، ويوما ما أنشأ لنا مسابقة تعبيرية وكتبت الموضوع مع زملائى، وفزت بالمركز الأول وأعطانى المعلم قلم حبر هدية، وكان هذا الموقف كذلك مما زادنى ثقة في نفسى.

أكتفى بهذا القدر الطريف مما حكى الأديب والشاعر الكبير من مسيرة حياته، ولكن اللقاء كان مثيرًا ومؤثرًا لأبعد حد، وبه كثير من اللقطات الجميلة التى تستوقف عشاق الأدب والثقافة، لكننى لا أخفيكم أننى استأت كثيرًا من عدم معرفتى بالرجل من قبل، فهل هو لجهلى أم لتقصير منه في معالم الظهور، لا أعلم.. ربما كل ذلك، لكن يبقى الشكر الجزيل للدكتور (بسيم عبد العظيم) أن أعطانا فرصة التعرف على هذه القامة الفريدة والموهبة الرائعة.

غرور اللغويين

كثير من المغرورين من علماء اللغة والمتخصصين فيها، يفزعون إذا رأوا عالمًا من العلماء في غير تخصصهم، يبزهم في ميدانهم ويتفوق عليهم، فإذا فريق منهم يستنكرون، وفريق آخر يتحول الأمر في نفسه إلى صراع ومعركة شخصية، وربما ينتقل إلى حقد وكره وبغض لا حدود له.

شاهدت هذا بنفسى حينما كان شيخنا العلامة الدكتور محمود عمارة رحمه الله آية من آيات الله في البيان والبلاغة، وهو من شيوخ الدعوة والمتخصصين في فنون الوعظ الدينى، لكن الرجل وبشهادة الدكتور حسن جاد حسن، شاعر الأزهر وأديبه الكبير، يشهد له بالتفوق اللغوي والتميز البياني، ويقول عنه: حينما أسمعه في الإذاعة فإنه يذكرني بالرافعى وطه حسين، وهذه الطبقة الفريدة من الأدباء.

كان الدكتور محمود عمارة شيخًا من شيوخ كلية أصول الدين التى تجاور كلية اللغة العربية في مدينة شبين الكوم بالمنوفية، وحينما كان يدعى لندواتها، يخيل إليك أنه من علمائها وأساتذتها الكبار، لما كان يتسم به من التبحر اللغوي والتفرد الأدبي، لكن بعض الحقدة كان يحب أن يكون ممن ينكرون ضوء الشمس من رمد، رمد الغيرة والحسد، ويصر أن يناطح الحقيقة، فيتقول على الشيخ بمقالات، لا ترى وراءها غير حقد

طافح، وغلو أسود، ونفس بئيسة مظلمة، ولعل الشيخ عمارة قد تأثر في هذا المزج بين العلم والأدب بتوجيهات أستاذه وشيخه محمد الغزالي، الذي كان يتكلم في هذا الموضوع بوضوح وبيان فيقول في كتابه (مع الله): "والداعية الذي يشعر بغربة في ميدان الأدب يجب أن يترك ميدان الدعوة لفوره"وذلك لأن الذي يحاول خدمة الرسالة الإسلامية دون أن يكون محيطًا بأدب العربية في شتى أعصارها إنما يحاول عبثًا، وأنَّى لرجل محروم من حاسة البلاغة أن يخدم دينًا كتابه معجزة بيانية ورسوله إمام للحكمة وفصل الخطاب! الداعية لابد أن يدرس آداب العربية القديمة والحديثة، وأن يدرب نفسه على الأداء العالي والعبارة الرائقة.. وليس القصد أن يكون كلامه إنشاءً منمّقًا كلا فهذا مزلقة له ولرسالته، وإنما القصد أن يحسن صوغ العلم النافع والحقائق الركينة في أسلوب يُبرز ما فيها من نفع وقوة.. وقد قالوا: "إن الخط الحسن يَزيد الحق وضوحًا"

وكذلك القول الحسن والخطاب الجميل.

وحينما دُعى الدكتور عمارة إلى الحديث في برنامج (رأي الدين) بإذاعة القرآن الكريم، ليرد من خلاله على فتاوى السائلين، في أمور الدين والمسائل الفقهية، لازمه منهجه الأدبي في الرد والإجابة، وهو ما أغضب البعض منهم، حيث يقول الدكتور نفسه في مقدمة كتابه (رأي الدين): "طلب منى أن أسهم في برنامج رأي الدين.. وبريد الإسلام، وكنت أرغب في الرد على الأسئلة ذات الطابع الاجتماعى، لكن إسهامى لم يدم طويلا بعدما تردد في أوساط إعلامية بأن (الفتوى تأدبت) وكأنما الفتوى

المتأدبة نشازًا في لحن متناسق، فاستغنى القائمون على البرنامج عنى، لأننى متأدب والفتوى لا تعرف الأدب، ولقد كان ذلك عيبًا أعتز به، وهو المعنى الذي قصد إليه الشاعر القائل:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ❋ بهن فلول من قراع الكتائب

إنهم يريدون الفتوى معلبات مصنعة، تقدم جاهزة لمن أراد.

أذكر فيما قرأت أن دعى الدكتور محمد رجب البيومى لأمسية ثقافية تضم أدباء من مصر والسعودية بالمعادي، وفي هذه الأمسية دار الحديث عن مسائل أدبية وتاريخية كثيرة، وجاء ذكر الإمام مالك -رضى الله عنه-، وكيف عُذب في ذات الله، لأنه أفتى بأن طلاق المكره لا يقع، فاكتفى المتحدث بذلك، حتى قام أحد الحضور، وتناول المسألة من وجهها الفقهى، فعرض آراء الأئمة في طلاق المكره، فذكر من غيب صدره وكانه يقرأ في كتاب، أن فقهاء السلف قد اختلفوا في طلاق المكره فروى عن إبراهيم النخعى أنه يقع، وذكر الشافعى أنه لا يقع، بدليل أن الذي يكره على قول الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان، لا يعتد بما أكره عليه، وذلك في الإيمان، وهو أقوى أثرًا من غيره، فكيف بالطلاق، وأيد الشافعى منحاه العقلى بما روى عن الصحابة، ثم أفاض المتحدث في خلاف كبير بين المالكية ذكره العلامة الشيخ أحمد الدردير في شرحه على متن خليل. ولمس البيومى أن إلمام المتحدث بما يدل على أنه فقيه كبير من رجال التشريع! وسأل عنه فقيل له إنه الأديب الكبير الأستاذ عبد القدوس الأنصاري صاحب المنهل، فزاد إعجابه به يقرأ له أبحاثه ويجدها موزعة بين الأدب والتاريخ والآثار! ودفعه ما سمع أن ينتقل إلى جواره ليسعد بمعرفته، ويبدي له إعجابه بتبحره الفقهى على ذيوع

شهرته في عالم الأدب، وابتسم الرجل، وقال للبيومى: إنه تلقى علوم الشريعة بجوار علوم الأدب على يد أستاذه وعمه الشيخ محمد الطيب الأنصاري، الذي كان لا يفرق بين مواد الثقافة الإسلامية، إذ هى لديه في مستوى واحد، وقد قام على تدريس مواد مختلفة! فكان درس الأدب لديه يجاور درس الفقه والحديث، ودعا الأنصاري رجال التعليم فى الكليات الإسلامية ألا يفصلوا هذه المواد، لأن الفقيه لا يكون عالمًا إلا إذا درس علوم العربية، كذلك لا يكون الأديب أديبًا إسلاميًا إلا إذا درس علوم الشريعة!

ولاحظ المجتمعون همسهما، فاستفسروا عن جليته، فانبرى الأستاذ الأنصاري يتحدث بلسانه المبين عن وثيق الصلة بين العلوم الثقافية، التى يجب أن يلم بها الأديب العربى، ثم أعلن أنه يشكو من مقالات تجيئه من بعض أساتذة الفقه، تحتاج إلى تقويم فى الأسلوب، كما أنه تحدث عن أدباء كبار في مصر والشام والعراق فوجد فيهم من لم يقرأ كتب التفسير والحديث، وهو عيب خطير، إذ لا يجوز للأديب الجدير بهذا الوصف أن يزهو بقراءة الروايات الغربية المترجمة! ثم لا يعرف شيئًا عن رسالة الشافعى، وموطأ مالك، ومسند أحمد.

وهكذا كانت اللغة والعلم وجهان لعملة واحدة.

اعرفوا أصل الحكاية

كثير ممن ينهجون منهج السخرية من تراثنا الفقهى والعلمى، يتاح لهم ذلك بكل يسر وسهولة، حيث تراهم يركزون على نقاط وردت في بطون الكتب القديمة، التى كتبت منذ مئات السنين، وعبر أزمان وعقود ماضية.! وهذا الموقف يجعلنا نحن المعتزون بانتمائهم الدينى في قمة الحرج، حيث ندور نبحث عن تبرير لهذه الهنات فلا نجد، حتى بعض الفتاوى الغريبة لا نجد لها حلًا، ونشعر أننا تورطنا في الأمر، أو أن هؤلاء الفقهاء القدماء قد ورطونا في أمور ما كان أغنانا عنها.

ويظل المرء تائهًا في نفسه يدور حائرًا مع بعض الأسئلة المريبة، التى يختلط بها لوم عنيف لهؤلاء الراحلين، كيف يكتب هؤلاء الناس مثل هذا الكلام، ما الذي دفعهم للخوض في هذه الدوائر المريبة، والموضوعات التى تفوق علومهم ودراياتهم، ليصيروا اليوم وكأنهم منجمين، وقد أعطوا رقابنا قبل رقابهم للكارهين للإسلام والمنفرين من تراثه وعلومه؟ وهذه الهنات التى يتلقفها أعداء التراث والهوية من العلمانيين واليساريين والملحدين، وأعطتهم الفرصة ليهللوا تشنيعا وتسفيها وسخرية، لها أصل وسبب، لو عرفناه لزال بعض العجب.. لقد كان الناس في بعض الفترات والعهود التى مرت بالمجتمعات الإسلامية، ينظرون للفقهاء والمحدثين نظرة الإحاطة بكل شىء، وأنهم كل شىء في الحياة، وأنهم علماء بكل شىء في الدنيا، ومن ثم كانوا يسألونهم في غرائب الأشياء والعلوم والأمور، والداهية أن هؤلاء الفقهاء أنفسهم لم يكونوا

يدركون هذا المعنى ويصدقونه في أنفسهم، ولا يدرون أن هناك علوم وراء علومهم، أو تخصصات أخرى يمكن لها أن تجيب الحائرين فيما بعد عن أسئلة تخص هذه العلوم، كانوا يتصورون كما قيل: إن الفقه والحديث يمكن لهما أن يجيبا على كل شيء في هذه الدنيا ومستجداتها قديمها وجديدها معلومها ومستورها، سواء اتصل بالطب أو الفلك أو التاريخ أو علم الجيولوجيا وما شئت وتخيلت من مختلف العلوم، هكذا كانوا يتخيلون، وهكذا وضعهم الناس في أزمانهم في هذا الموضع، فإذا سئل في أي شيء، ما عليه إلا أن يبحث ويجتهد في البحث، ويقلب هنا وهناك ليجد ضالته أو ما يشير إليها أو قريب منها، ولو كانت حديثًا ضعيفًا أو مقولة لأحد العلماء، فيكون ذلك هو الجواب والصواب، ومن ثم امتلأت بطون بعض كتب الأولين بالغرائب المرفوضة، التى لا يتقبلها العلم والتطور وما تجلى به الحاضر من معارف ومعالم.. نعم كان الفقهاء يخترقون كل العلوم وكل التخصصات دون احترام لتفرد، لأنهم كانوا كل شيء وكما وضعهم الناس ليكونوا كل شيء.

سئل أحدهم يومًا عن السواد الذي يلمحه الناس في القمر، ولم يكن له إلا أن يجيب بأنه الفقه المحدث، فبماذا أجاب وأفتى؟ لقد قال بأن عليا -رضى الله عنه- سئل عن هذا فأجاب بقوله: إن هذا السواد هو أثر مسح جناح جبريل، لأن الله -تعالى- خلق نور القمر سبعين جزءا كنور الشمس، فمسحه جبريل بجناحه فمحا منه تسعة وستين جزءا حولها إلى الشمس، فأذهب منه الضوء وأبقى فيه النور، فذلك قوله -تعالى-: "فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة".. ويفتى كذلك بأن القمر يقطع الفلك في شهر والشمس لا تقطعه إلا في اثني عشر شهرًا.. ويالها

من أقاويل تثير الضحك ممن أبان لهم العلم الحديث كثيرًا من هذه الأمور، ليتخذوها بينهم سخريا.. وليت الأمر وصل إلى هذه العلوم الخارقة فحسب، بل شمل كل شيء حتى في المطعومات والنفس والطب والغيوب والعوالم الخفية.

كما كان الناس بارعين وقتها في افتراض الأسئلة الخارقة للعقل والمنطق، يطرحونها على الفقهاء، ومن ثم يجيب الفقهاء عليها ببارع الردود، ولكنها أثارت السخرية عليهم في أزماننا المتحضرة، كان الناس قديما يعيشون في ترف فقهى، فيهزلون ويتسلون، لنأتى نحن اليوم فنعانى من هذا الترف أو السخف الذي كان طبيعة الناس في هذه الأزمان الماضية.. لكن على كل المعتدين على التراث والمتهجمين على بعض كتبه أن يدركوا، هذا الأصل ويعلموا ماهية الحكاية، ولا يبغتونا بسخريتهم المباشرة، ويعيروننا بماضينا، لأنه هكذا كانت الأحوال والطباع والعقول.

ليست طبيعة تراث، وإنما قبل ذلك طبيعة شعوب وعقلية مجتمعات كانت تعيش هذه الأوقات، وهى الظروف التى يجب أن يدركها من يهزأ ويسخر ويدعوا لطمس التراث واتهامه بالتخريف والسفه.. ولا يجب أن نغفل أن هذا النمط العصري، لم نسحبه على كل العصور الإسلامية، ولم يكن هو حال كل المسلمين في كل أزمانهم، ولا طبيعة كل الكتب الخالدة التى تنطق بالنور والحكمة والهداية، وإنما هى أزمان خاصة وأوقات معلومة، شهد بها هذا التراث الباقى عن أيامهم.

مهزلة جديدة في الوسط الثقافي

لم أكن أتخيل أبدًا أن يأتي بعد هذا العمر الطويل، وأجد من يجدد الحديث عن الوقح (سلمان رشدي) وأجد من يدافع عنه، ويبرر إفكه، ويردد اسمه وذكره، بل يشيع في الأوساط الأدبية: أنه أديب مرموق، وأننا يجب أن نفرق بين كونه أديبًا وبين كونه ملحدًا سبابا طعانا لديننا ونبينا.. بهذا والله صدمت من منشورات بعض المثقفين، وبعض الأصدقاء الذين قد أعتز بصداقتهم، وبعض المهرطقين الذين يستهويهم الانحراف الفكري ويعدونه عبقرية.

سلمان رشدي الأديب الوقح، أو المفكر السفيه، الذي لم يحترم ديننًا، ولم يوقر مقام النبوة، سلمان رشدي الذي تحرك العالم الإسلامى كله منتفضا ضد روايته الإلحادية، يأتي اليوم من يريد أن يقول لنا: أنتم حمقى وجهلاء والرجل أديب يفوز بالجوائز العالمية، وله دورات في فن الكتاب، تدرس في الجامعات الأوروبية، والحقيقة أنا لا أعلم من هو الأحمق الحقيقى؟! وهل ما حدث يزيد من قيمته، أو يدل على أنه قدم شيئا معجزًا؟ أعرف كثيرا من الكتاب كانت لهم هذه المكانة.! ثم تكون الحجة التى تقصم الظهر في خيالهم الأبله، وهى: أنت لم تقرأ الرواية، فكيف تحكم على كاتب وكتاب، يعنى كل المشكلة في وجدانهم، أنك لم تقرأ فكيف تسمح لنفسك أن تسب وتهين وتسفه؟! وهذا لعمري منطق أعور

وساقط ومخلول، يتخيل فيه صاحبه أن يتكلم عن شخص سمعه يسب شخصًا آخر فقام بكل بلاهة وتبعة عمياء ليسبه على غرار المتحدث الأول.!

عجب عجب.. لم يدر الحكماء الكبار، أن هناك فرقًا بين رجل تسبه مؤسسات وعلماء ومفكرون كبار، أجمعوا على النكير عليه وإلحاده وكفره واستهزائه بالإسلام ونبيه الكريم، وبين رجل عادي تجنيت عليه وسببته لمجرد أنك سمعت شخصًا آخر يسبه.. ما هذا -الهطل-؟ بل انظر هنا.. دولة بأكملها تتحرك وتتوعد هذا المجرم الجاني، ويقوم زعيم هذه الدولة وهو الخومينى، بإهدار دمه ورصد مكافأة لمن يقتله، ثم بعد ذلك يقولون لنا: إنكم لم تقرؤوا الكتاب! لست مع أسلوب الخومينى ولنا الحق في نقده، لكن الشاهد الذي يهمنى شهادة دولة في الرواية وصاحبها، هل تعرف ما معنى أن تتخذ دولة موقفا ما؟! وعجبا يا أخى أي كتاب نقرأ، والدنيا كلها تدوي بكونه كتاب مسيء سفيه ظالم حقير ملحد ساقط؟ وحتى رأي النقاد فيه بأنها رواية ضعيفة تالفة كتبت بأسلوب سيء لا يرقى للسمو المطلوب.. نضرب بآرائهم عرض الحائط لأننا لم نقرأ الرواية؟ ويا أخى المتفيهق انظر حتى إلى الدين والشريعة، التى يباح فيها أن نبنى شهادتنا على شهادة الغير، وليس المقام الآن لشرح هذا الأمر الفقهى، ولكن يمكنك أن ترجع لأي كتاب فقه، لترى وتعرف هل تجوز الشهادة على شهادة الشاهد الثقة؟ بل أبيح الأمر كذلك في علم الحديث والجرح والتعديل، الذي هو أعقد علوم العالم في تحري الثقة والعدالة والانضباط، حينما أباحوا تصديق الحديث المرسل وهو الذي

يروى مباشرة من التابعى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، دون وجود صحابي، وقال أهل المصطلح فيه: تجوز هذه الرواية بشرط واحد وهو، أن يكون هذا الراوي أو التابعى من العدول المعروفين، كأن تقرأ عن الحسن البصري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الخائب سلمان رشدي، ظهر اليوم من يدافع عنه ويقول لنا نحن المتهمين له: أيها الحمقى، الرجل أديب كبير وفاز بالبوكر، وتم تحميل روايته وكتبه بالآلاف، ونسى هذا المتحدث، أن كثيرًا من الجوائز العالمية والإقليمية وعلى رأسها نوبل، تخضع لأيديولوجيات وتعصبات حزبية معروفة، وتدعمها وترشح لها بعض الدول والكيانات المغتصبة، وليست أبدا حكما على رقى أدب بعينه ومقام كاتب بذاته.

هب أن رجلا كاتبا أو أديبا هاجم المملكة العربية السعودية، وكان هذا الكاتب من أعظم الكتاب، فهل تتصور أن تمنحه المملكة جائزة الملك فيصل العالمية؟! لن يكون ذلك أبدا.. كما هناك وفي صفحة حياة سلمان رشدي الفاشل، نعرف جميعا أن فتوى الخومينى بإهدار دمه واعتراض العالم الإسلامى وضجيجه، هو الذي أشهر الرجل ودفع الغرب أن يحميه ويأويه، ويركز عليه ويشهره، ويضعه من الأماكن الحساسة، ويدعمه بكثير الجوائز ويرشحه لها، ليوجه رسالة للعالم النائم أن سلمان أديب وفيلسوف ومفكر وكاتب كبير.. لأنه في نظرهم يحقق أهدافهم التى يسعون إليها لإهانة الإسلام، والتقزيم من وجوده، فمرحبا بذلك إذا كانت الضربة قادمة ممن انتسب إليه في يوم من الأيام.. ثم يعرجون ضحكًا وسخرية على من حرم على نفسه قراءة كتاب آيات

شيطانية لسلمان رشدي، بأنه يخاف على عقيدته.. وما العيب في ذلك، لقد عرفت بعض القراء أوغل في قراءة كتب الملحدين حتى صار ملحدًا، وقرأ كل شيء ولم يقرأ عن الإسلام نفسه.. وأعرف كذلك امرأة أتاحت لابنتها عالم القراءة وتركت لها الحرية دون رقابة أو متابعة، حتى وقعت الفتاة في كتب الإلحاد ومواقعة، وكانت الصدمة بعد ذلك في إلحادها.. وكنا نود من هؤلاء الساخرين المسطولين أن يوجهوا اللوم ابتداء للجاهل سلمان رشدي ويقولون له: هل قرأت عن سيدنا النبى صلى الله عليه وسلم، وهل قرأت عن أمهات المؤمنين، وهل قرأت عن الصحابة الأماجد وتاريخهم المشرف؟

لهذا وأمثاله نوجه نفس السؤال، وليس لمن أخذته الغيرة وحملته الحمية لنصرة لدينه، ولو كانت شهادته حتى هذه الحمية مبنية على شهادة العدول.. ما حدث ويحدث من محاولات جديدة لإنصاف سلمان رشدي، ولو حتى من الناحية الأدبية، هو محاولة لإهانة الإسلام وتراثه وتاريخه في نفس الوقت، وليس عندي لها أي تفسيرآخر.. ثم ماذا بك أن أيها اللائم لو أمسكت بكتاب سلمان رشدي، هل تسمح لى أن أوجه إليك نفس النقد، هل قرأت الكتاب حتى تدافع عنه، ولو من الناحية الأدبية، هل طالعته؟ هل وجدت فعلا وهو بين يديك، أنه كتاب يستحق التقدير والتبجيل حتى ولو من الناحية الأدبية؟ إذا كنتم تلومون الغاضبين بأنهم لم يقرؤوا، فأولى بكم أن تصمتوا ولا تدافعوا وتلوموا أنفسكم لأنكم أيضًا لم تقرؤوا، تريد أن تقول لى: إن سلمان رشدي أديب بارع وكاتب ماجد لا يوجد على وصفه، وأن العالم يعرف قدر سلمان

رشدي الذي نهينه نحن اليوم؟! نعم يا سيدي أنا أوافقك الرأي، ولكن اسمح لى وعلى شهادة الأمة التى قرأت الرواية، ووقفت على مواطن الإهانة، أنا لن أقرأ له ولن أعترف به، حمية لدينى وانتصارا لعقيدتى ورموزي، وأرجو منك أن لا تمنعنى حتى من سبه وإهالة القذى عليه لهذا السبب، فأنا كما قلت لك: لا أجد حرجًا في بناء شهادتي على الشهود العدول، وليذهب هو وأدبه إلى الجحيم، فالحمد لله تمتلئ الدنيا والعالم كله بالأدباء والروايات التى يمكن أن تُمتع القارئ وتلهمه معاني الرشد والإنسانية.. ما حدث مهزلة بكل المقاييس، ودعوة للترويج لقلم ملحد سفيه.

العبرة بالخواتيم

من مأسى دنيا الثقافة، ذلك الفقر المعرفي الذي يقودك أن تعيب أو تتبنى رأيًا لعالم أو مفكر، فتنادي به أو تعترض عليه غاضبًا مُعيبًا، وأنت لا تعلم أن الرجل قد عدل عنه وغيره، وانحل من رؤيته وتبنى رأيا جديدًا يخالف ما سلف منه.. ربما تقرأ كتابًا يعلن اجتهادًا معين، ترفضه ولا تتوافق معه، فيدعوك ما قرأت، أن تشن حملة صاخبة غاضبة على صاحبه، فتندد به في المجالس، وتسخط عليه في المحافل، وتذكر متهكما مستهزئًا مالا يروقك من رأيه وقوله، حتى تفاجأ وأنت في أتون غضبك، بمن يربت على كتفك ويقول لك: حنانيك فالرجل قد رجع عن رأيه، وغير وجهة نظره في كتاب كذا أو مقال كذا أو حادثة كذا.!

لا شك أنك ساعتها سوف تشعر بحرج كبير، وضيق عظيم، مرة لجهلك وقلة بحثك وإحاطتك بالموضوع، ومرة أخرى لإحساسك المُر بأنك ظلمت من رويت عنه وتجنيت عليه.. ومن ثم نقول دائمًا: إن العبرة بالخواتيم، ولا يجوز لأحد ولا يحق له أن ينادي أو يحاسبنى بآراء قديمة، رجعت عنها وتبت منها، وانصرفت عن النداء بها.. تمامًا كهذا الذي يعير مفكرًا كبيرًا بماركيسيته السابقة، بعدما تحول للإسلام ومناصرة قضاياه.

إن الآراء القديمة التى تبت عنها، تشبه امرأة تزوجتها ثم طلقتها، فهل من المعقول والمقبول أن تحسب عليك أو تنسب إليك بعد الطلاق والفراق؟! إن ذلك أمر محال قبوله أو تعقله، لأنها تصير أجنبية وغريبة عنك، حتى لو كنت قد أنجبت منها أولادًا، وإن أي محاولة تخاطبك بهذا الماضى، أو إنزال الذكريات محل الواقع واللحظة المعاشة أمر لا قيمة له.

ذكرت مرة أم شوقى كتب شعرًا في كمال أتاتورك، حينما كان مخدوعًا به، وكانت الأمة كلها تتوسم فيه الخير مع بدء ظهوره والأنباء العظيمة التى ترد عنه، فمدحه شوقى بشعره وكان مما قال:

الله أكبرُ كم في الفتح من عَجَب

يا خالدَ التُركِ جدّد خالدَ العَرَب

صلحٌ عزيزٌ على حرب مظفرةٍ

فالسيف في غمدهِ والحق في النصب

حذوتَ حرب الصلاحيين في زمن

فيه القتالُ بلا شرع ولا أدب

لم يأت سيفكَ فحشاءً ولا هتكت

قناكَ من حرمة الرهبانِ والصُلُب

ولكن أمير الشعراء بعد ما تبينت له حقيقة أتاتورك، تبرأ مما قال، ولم يكن هذا التبرؤ في حاجة للإعلان، لأن المصيبة نالت من قلب كل مسلم، لكن شوقى أبى إلا أن يهجوه بشعر، كما مدحه في السالف بشعر فقال:

مالي أطوقهُ الملامَ، وطالما ❋ قلدتهُ المأثور من أمداحى

هو ركنُ مملكةٍ وحائطُ دولةٍ ❋ وقريعُ شهباءٍ وكبشُ نطاح

أيكون معقولا بعد إظهار هذا الموقف الساخط الغاضب من أتاتورك، أن يأتي أحدهم، فيلعن شوقى، لأنه مدح أتاتورك بأبياته السابقة؟ لا شك أن هذا القصور المعرفي محنة كبيرة، تشوش على الحقائق والأفهام.

الأستاذ الكبير أنور الجندي، كان شأنه شأن كل المصريين، الذي توسموا في عبد الناصر خيرًا ورفعةً ونهضةً، ويحسن به الظن، ويرى فيه أمل هذا الوطن وبداية تحضره ونهوضه، ودفعه هذا الإعجاب أن كتب عنه أكثر من كتاب مثل: هذا هو جمال من بنى مر إلى الجمهورية العربية المتحدة وطبعته دار المعارف عام 1960م، وكتاب جمال عبد الناصر وكفاح الشعب وطبع عام 1956م ، وكان قد ألف كتابا ثالثا بعنوان الشروق الناصري، لكنه طواه ولم يُعد طبعه بعدما تكشفت حقيقة التسلط الناصري وشخصية الزعيم الدكتاتور المستبد الذي قاد الوطن

للهزيمة والعار.. فهل يمكن لي ولغيري، أن يروي ذكر هذه الكتب الثلاثة، ويحيى طبعها ويردد مضمونها، وقد ندم عليها صاحبها؟ ألا إن هذا ظلم كبير يوقعنا فيه، قلة درايتنا وضعيف معارفنا بالبحث والباحثين.

ومثل هذا الاختبار وقع فيه علم كبير وهو الأستاذ محب الدين الخطيب، فعاب رأيًا ونسى توبة، إذ يذكر الدكتور محمد رجب البيومى أنه ذهب إلى لقاء الشيخ أبو الوفى المراغى في مكتبة الأزهر العامة، وكان قد قرأ له مقالا بجريدة الأهرام يرثى فيه الراحل الأستاذ فريد وجدي، ففاجأه المراغى بقوله: إنه كتب المقال لمجلة الأزهر، ولكن الأستاذ محب الدين الخطيب تشدد في رفضه، وأبى أن ينشره، فلم يجد بدًا من إرساله إلى الأهرام، فسارعت بنشره على غير ما كان يظن.

ودهش البيومى من الرواية، وسارع إلى الأستاذ محب الدين الخطيب حتى يستجلى معالم الرفض، وقال له: علمت أنه رفضت نشر مقال في رثاء الأستاذ وجدي، وهو رئيس تحرير مجلة الأزهر لمدة عشرين عامًا، وجهاده الشاق في الحقل الدينى، يجعله في مقدمة زعماء الإسلام في العصر الحاضر، فلماذا؟ تغير وجه الخطيب فجأة وقال: أنت لا تعرف فريد وجدي، إنه ناصر الكماليين في تركيا، كما أنه في بعض كتاباته الأولى قال: إن الإسراء كان بالروح ولم يكن بالجسم، فكيف أترك صفحات المجلة للحديث عن مثله، لقد رثيته بالعدد الماضى في عدة سطور وهذا يكفي!

وأمام هذا المنطق انفعل البيومى على الأستاذ الخطيب وعلا صوته قائلا: إن الأستاذ وجدي قد ناصر الكماليين في مبدأ الأمر، لأنه كان يجهل حقيقة ما يبيتون، وكذلك كان أحمد شوقى، فلا يلام كلاهما!، أما الإسراء بالروح فقول ذهب إليه بعض السلف، فإذا قال به الأستاذ وجدي فهو تابع لا متبوع، على أنك قلت: إن هذا رأيه في كتاباته الأولى، ومعنى ذلك أنه لم يعد رأيه أخيراً، ثم سكت الأستاذ الخطيب ولم يرد، فاستدرك البيومى كلامه بقوله: لقد ألفت يا أستاذ كتابًا عن الشاعر الهندي طاغور، وله جهاده المشرف؟ ثم إنك تجلس اليوم مكانه بالأمس! واستأذن منصرفًا دون أن يسمع جوابًا.

المنافقون وحدهم من يجوز لك أن تلومهم، وتعلن تناقضهم، وتندد بنفاقهم، وهم من يغيرون جلدهم، ويتلونون مع الأيام بألوانها المستجدة، ويتكيفون مع أعصارها وموجاتها وسياستها، مهما تباينت أو تخالفت، فالمهم أن يكونوا هم في قلب الحدث يستفيدون ويظهرون.. وقد أعفى كذلك من هذا الحرج من كانوا يظهرون آراءهم خوفًا وهروبًا من الأذى، ثم أظهروا ما خالفها حين زال الخطر، وأتيحت لهم الحرية اللازمة ليعبروا عن حقيقة مكنونهم.

لو كنتُ معهم لأحببت (مي)

كتبت كثيرًا فيما مضى عن مى، وكنت أسائل نفسى دائما: لماذا أحبها الجميع، فلا أعلم أديبًا من ذلك الجيل إلا وقد غرق فيها حبا وهياما.

كنت كثيرًا ما أجيب على نفسى، وقد تخيلتنى بحذق وفطنة قد اهتديت للجواب، فالمرأة المتعلمة المثقفة في هذا الزمان، كانت نادرة، ومن ثم بهرت الأدباء القدامى، فهى نموذج للمرأة المتفردة في عقلها وثقافتها وأدبها.. ولهذه الندرة توقعت أنها السبب الغالب في هذا الحب والهيام.. ولكنى أعترف اليوم ومع زيادة الوعى والتوسع القرائى، أننى مخطئ، فمى كانت حالة فريدة في كل شئ، وما كلامى القديم أمام ما علمته من سماته إلا ويعد جهالة سحيقة.

لقد كان في هؤلاء الأدباء الذين أسرت مى مهج أرواحهم، من تعلم في أوروبا، وخالط المثقفات الغربيات، أي أن الثقافة لو أنها هى ما يعوزه، فلن تبهره مى في شىء، لأنها لم تقدم جديدًا لديه، فما هى فيه عرفه وألفه من قبل.. لكن حقيقة مى أنها كانت جمعًا حاشدًا من سمات الجمال والدلال والإبهار، وضعها خالقها في شخص امرأة، فكانت على أحسن وأبهى وأجمل ما تكون، وهى خليقة ألا يفتتن بها الأديب فقط، وإنما أي شخص يلقاها أو يحادثها يفتتن بها.. لكن مهاراتها الأدبية التى تميزت بها كانت تبهر من يقدرون هذه الملكات فيها أكثر.. نعم عرفت ذلك من

وصف الدكتور منصور فهمى لها، ولعله أكثر من لفتنى على حقيقة مى، وجعلنى اليوم أجيب بشكل مختلف، على ذلك السؤال القديم الذي كانت إجابته بلهاء.. يقول الدكتور فهمى عن مى:"لا أعدو الحق إذا قلت إنها كانت خطيبة ومحاضرة من أرقى طراز، ولعل أسبابًا اصطلحت على تفوقها في ذلك الميدان ، فقد كان لها في عذوبة صوتها ، وحُسْن أدائها، وحلاوة إلقائها ، ووسامتها وحسن سماتها معين على ذلك وكانت تميزها حين تقف للخطابة في حفل، أو للمحاضرة في جمع، ثقة في نفسها، واعتداد بشخصيتها، فما عرفت أنها تهيبت منبرا، أو خشيت موقفا، أو غشيتها سحابة من جبن، أو جلّلتها غمامة من خوف، بل كانت دائما الواثقة بنفسها"

هذه إذن هى مى، التى جمعت وحوت كل هذه المحاسن الجاذبة، التى أخذت عقول الرجال، فإذا لم تعجبك منها خصلة بهرتك خصال، وإذا وجدت فيها ما تشاركه معها امرأة أخرى فلعمري من أين للأخرى بقية ما تميزت به مى.. لقد كانت مى كما ذكر على ما رصده فهمى بارعة في اختيار الموضوع الموافق لوعى المستمعين لها، ثقافتها وواسعة في الموضوع الذي تتحدث فيه، لقد كانت مى في خطابها تعرف كيف تتكلم وكيف تنتهى من كلامها، فلا يمل سامعها، بل يتطلب في سره المزيد، أما صوتها الرخيم المنغوم، في لهجتها المصرية العذبة، فكان ذا سحر يجتذب الأسماع والقلوب، وكم من خطيب أو محاضر، أوتى خصائص الفكر والكلام، ولكنه إذا تصدى للخطابة أو المحاضرة تسلل الخدر إلى الأذهان، ودب الضجر في النفوس.. ولعل هذا السحر في الصوت

والإلقاء هو ما ذهل خليل مطران فعبر عنه في شعرها لها، ولعل الشاعر الكبير خليل مطران ومن قبله العملاق العقاد، من ألمحا هذا الحضور الطاغى والموهبة الخطابية المتفتقة، فقال مطران يصف جمال الصوت ورقته:

أين ذاك الصوت الذي يملك الأسما ** ع في كل موقف تقفينا

فجع الشرق في خطيبته الفصح** ى وما كان خطبها ليهونا

أبلغ الناطقات بالضاد عبت ** بعد أن أدت البلاغ المبينا

أطربته وهذبته وحثت** ه على الصالحات دنيا ودينا

بل قال العقاد يصف نفس هذا الوقوف:

أَيْنَ فِي المَحْفِلِ «مَيٌّ» يَا صِحَابْ؟

عَوَّدَتْنَا هَا هُنَا فَصْلَ الخِطابْ

عَرْشُهَا المِنْبَرُ مَرْفُوعُ الجَنَابْ

مُسْتَجِيبٌ حِيْنَ يُدْعَى مُسْتَجَابْ

أَيْنَ فِي المَحْفِلِ «مَيٌّ» يَا صِحَابْ ؟

وأنت أيتها الأديبة التى يتطلع لها في أفق السماء الأدبية وحى مى وصورة مى، شيء جميل أن تكون مى ملهمة لك، وقدوة لمسارك، لكنك مهما كنت عليه من المواهب، فلن تكوني كمى، ولن تصلى إلى رتبة مى.. فقد كانت مى وما كتب عنها وما جاء في وصفها، جعلنا نرثى هذا الزمن القديم لأننا لم نكن فيه حتى نشاهد مى، وفي أحيان أخرى نحمد الله أننا لم نكن فيه، لأننا لا طاقة لنا أن نكتوي بجمال مى وعشق مى.. ولعل الصورة التى تنقل لنا ملامح مى قد تسوق بعض السطحيين لامتهان ما حكى عنها وما قيل في هيام الأدباء بها، ولكنك واهم، فالصورة لا تنقل أبدا سحر الروح، الذي إن وجد في امرأة فكبر أربعا على عشاقها ومفتونيها.

قمم مهملة

العلمانيون واليساريون والملاحدة، يتاح لهم من الظهور الإعلامى والاحتفاء الجماهيري، مالا يتاح لغيرهم من ذوي الهوية الدينية، وأصحاب الفكر الإسلامى القيم الأصيل.. هناك حفاوة زائدة، واهتمام ملموس بالمنحرفين فكريا عن مسار الهوية الإسلامية، التى هى عنوان مصر والتعبير الصادق عن طبيعة شعبها المتدين، إذ يتاح لهم من التلميع الإعلامى الكبير ما لا يستحقونه، ومن العجب أنك لو أسبغت حقيقة هؤلاء، لوقفت على جهل مريع، وضلال عجيب، يقبع ويتوارى خلف جماجمهم الصدئة.

لكن الإعلام يصر على تلميعهم والترويج لهم، حتى يتيح لأفكارهم المنحطة الهابطة، أن تدخل عقول الناس، وتُفسد رشدهم.. تحدث هذه المأساة في مصر، منذ زمن بعيد، ولا أخص هذا الزمن الذي نحن فيه وحده.. لقد اعتاد الإعلام ومعه الدراما، أن تتجاهل شخصية الرافعى إمام البيان، الذي كان يقلب دنيا الثقافة، ويثير معارك حامية الوطيس، لأن تهمته في انتمائه الدينى، ولابد أن يهال عليه وعلى تراثه التراب السميك، أو يدفن في قبور النسيان.. الرافعى الذي لو كان في أمة من الأمم، لأقاموا له التماثيل، وسموا باسمه الجامعات والقاعات، ونسبوا إليه الشوارع والأندية، لكننا في مصر وفي إعلام العلمانيين

واليساريين، نعظم نصر أبو زيد، وننادي بعبقرية فرج فودة، ونزعم أن يوسف زيدان فيلسوف كبير، وهم لا قيمة لهم إلا في دنيا الخرف والهرف، وساحة التحريف والتزييف.. إمام كالعقاد، لم يستطيعوا أن يتجاهلوه، لعقله المرموق، لكنهم كانوا في محنة محيرة، إذ كيف يذكرونه وله هذا التراث الدينى الخالد في نصرة الإسلام، علينا إذن أن نذكره أديبا وتنويريا، ونتعامى عن إسلاميته، حتى يُظلم في تاريخه هذا الجانب.

أما عظيمهم وإمامهم ونابغة زمانهم، فهو طه حسين، الذي يصورون للعالم كله، أنه لا مثيل له أدبا وفكرا، وقد قرأت مرة لكاتب أبله، سطر حروفا مجنونة، جعل فيها من طه حسين مجددا للإسلام في القرن العشرين.. وعلى ذات الخطى تواصل مصر إهمالها لنوابغها من المفكرين الحقيقين، من أصحاب العيار الثقيل في دنيا الفكر والعلم والقلم.

انظر مثلا لهذه القامة العلمية الضخمة المعاصرة المفكر والناقد الكبير الدكتور (إبراهيم عوض) الذي لم يأخذ حقه، ولم ينل مكانته، ولم يجد من يقدر علمه وفكره ورؤاه، من مؤسسات الدولة ومراكزها الثقافية، وفي الوقت الذي يحرم فيه من الظهور الإعلامى وتقدير الدولة، نرى الغثاء يعلو في سماء الإعلام، ونبصر عقولا تهذي بالخرافة والزيف والتهليس، وتحتفى الصحف ومنصات الإعلام بالكذبة الجهلة الذين ليسوا إلا كالعهن المنفوش.

الرجل الكبير والمفكر الضخم، يعيش في بلد تتنكر لمقامه، وهو الباحث الجبار الذي تعددت مؤلفاته، وأثبت بصماته القوية في عالم الفكر والثقافة والنقد والتحليل والتحقيق.. تضيق به بلده وإعلام بلده، بينما ترحب وتستقبل من لا يقاسون به عمقًا وفكرا وإنجازًا وأثرًا.. ولكن للأسف هذه هى مصر دومًا، وهذه هى علتها المزمنة.. ولعل السبب في أن مصر تتعامى عنه، ويعزله حماة العلمانية عن الظهور لذات السبب، هو هواه الدينى وحفظه للأصالة العربية، ودفاعه عن تراثها المجيد، وهو الهوى الذي يناصبه العلمانيون العداء، ولا يريدون لهذا اللون وأصحابه، أن يكون لهم ذكر وتقدير وتواجد.. أسوة بما فعلوه مع الرافعى، وما يخفونه من سيرة العقاد.

الفيس بوك ومواقع التوصل الاجتماعى تضج بشباب الساحة الأدبية، الذين يعظمون الأقزام، ويكبرون الصغار، وينفشون أقلاما لا ترتقى حتى أن تكون في مصاف أصغر تلاميذ هذا المفكر الكبير، ومن المضحك المفزع حينما تراهم ينعتونهم بالفلاسفة، فأين هؤلاء من رجل كهذا، وهم أمامه في الحقيقة، كحصاة ضئيلة تافهة، أمام جبل شاهق مهول تدوي هامته في السماء.. يكتب أحدهم رواية هابطة وربما جنسية، فيصير حديث المدينة والمدائن التى تجاورها، ويُحدث زلزالا في حياة الشباب التائه، ويخرج عربيد يشكك في القرآن والثوابت قتصفق له الدنيا، ويحتفى به الجميع، بينما تهمل هذه القامة الفكرية وتحرم من التقدير اللائق بها، لأنه دينة أصيلة محافظة.

ويا لها من جريمة نكراء، لا تليق بساحة الثقافة المصرية.. قدر لي أن أقرأ للرجل وأنا المتخصص الأزهري في علوم الدين، ولي نظر في القراءة الأدبية والتراثية، فرأيت رجلا غير عادي، بل رأيت عملاقا يخوض غمار ميادين لا يقوى عليها إلا مارد جبار، يصول ويجول، ويكشف ويعري، وينقد ويحلل، ويثبت وينفي، ويُخطِّئ ويصوب، ويحقق ويدقق، بعقل ثاقب، وبصر نافذ.. الرجل قيمة كبيرة وعقلية فريدة، وإهدار قيمته وصمة عار في جبين كل مثقف حر، بل مذمة في مسيرة مصر الثقافية، وإذا كان هناك من يردد أسماء البغاث ويشجى بها الآذان، ولا يأتي على ذكره هذه القامة الفريدة، فهو خلل في ميزان الحكم والتقييم، ودليل واضح على الثقافة الهابطة المتردية، التى يغط فيها هذا الجيل.. حصل الدكتور عوض على درجة الماجستير في الأدب العربي الحديث عام 1974م، ثم سافر في بعثة إلى بريطانيا عام 1976م لمواصلة دراساته العليا في جامعة أوكسفورد، وحصل على درجة الدكتوراه في النقد الأدبي، وله من الكتب أكثر من مائة كتاب ما بين ورقية وضوئية على "النت".

والمطالع لقائمة كتب الدكتور إبراهيم عوض، يرى بوضوح اتساع الرقعة التى يتناولها بالبحث والدراسة من الأدب العربى والنقد الأدبى والفكر الإسلامى، وله أكثر من كتاب تناول فيه بالدراسة النقدية التحليلية، عددا من الترجمات القرآنية التى قام بها فرنسيون وإنجليز، وأغلبهم من المستشرقين، مبينا عيوب تلك الترجمات، ومفندا المزاعم التي ادعاها بعض الدارسين الغربيين عن القرآن، ورد كذلك على من

يسيئون إلى الإسلام متبعا منهجا عقليا صارما، وله كثير من الدراسات النقدية في مجال القصة والمسرح ومناهج النقد الأدبى وفلسفة الفن، كما كتب عن بعض الشعراء القدماء عددا من الدراسات، بالإضافة إلى تحليله لعشرات القصائد من عصور الأدب العربي المختلفة في عدة كتب أخرى، تميز مفكرنا الكبير بالتواضع الشديد، وقد حدثنى صديقى الكاتب عمرو مدين بقوله: "إن الدكتور إبراهيم عالم متواضع لدرجة لا توصف.. هل رأيت من قبل عالما ومفكرًا يقول لتلميذه: وجهنى؟! أو يقول لتلميذه: أنت تناطحنى اليوم ؟!وهل رأيت عالما ومفكرا يمنح طلابه بالهدايا ويحفزهم بالجوائز ليقرؤوا؟ إنك لا تتخيل كيف يطبق هذا الرجل معاني الصوفية الحقيقية في عبادته وبأي صورة، إنه قمة في التقوى الحقيقة وليست المزيفة"

وأمام ما عرضنا من هذه الصورة لهذا الرجل الكبير، والتى أطلقنا عليها محنة مصر، ربما يكون عزاؤنا الوحيد في مواقع التوصل الاجتماعى والفضاء الالكتروني، التى عرفتنا بالمفكر الكبير، وعرضت علينا علمه السيال، وأوقفتنا على مقامه الرفيع، فعذرا معالى الدكتور، فبصماتكم مؤثرة وجهدكم عظيم غير مجهول، وأثركم الكبير سيحفره التاريخ في ذاكرته.

المحتويات

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة	6
لو كتب الشيطان كتابا لقرأته	8
أدباء عاشقون	12
التراث الضائع	16
الذين حرقوا المعرفة	21
احذروا أبناءكم الجهلة	25
احترموا تخصصكم	28
الجرأة على النقد	32
جماهير بلهاء	36
ابن رشد المفترى عليه	39
آه يا ليلى	44
تنبهوا لما خفي عنهم	47
شبح المعاش	51
لا والله إنهم يكذبون	55
قوة التأثير	59
شيوخ يقعون في الحب	63

الرجل الذي أتعبنا 66
أزمة الاهداء 71
لا مجاملة 76
المري وجراحي القديمة........ 79
الكتاب الذي فقدته 84
الردود المظلومة 87
بدون معلم 90
ما ينطق عن الهوى 93
وداعا زمن الحرمان 97
الثقافة أم السياسة 101
يا أرض انشقي وابلعيني 106
مذكرات مجهولة 111
أرجوك لا تلمني 141
طلاب دار العلوم كفار! 120
مذبحة فكرية 124
العامية لغة المفلسين 127
الشهرة حظوظ وظروف 132
الشهرة آفة ومرض 136
أم كلثوم أديبة 139
أنا لم أفهم شيئا 143
الصور الملهمة 147
الصداقة يمكن أن تموت 150

السياسة عالم مهين 154
فن قراءة الوجوه 158
ما أروع الظلم! 163
دفاع عن مصر والمصريين 166
السياسة مقصد الأدباء 169
التهمة يهودي 173
التاريخ الأدبي يرحمكم الله 179
العلم ليس حكرا عليك 184
عمر بن الخطاب أديبا........ 189
أديب من المنوفية 194
غرور اللغويين 199
اعرفوا أصل الحكاية 203
مهزلة جديدة في الوسط الثقافي 206
العبرة بالخواتيم 211
لو كنت معهم لأحببت مي 216
قمم مهملة 220
المحتويات........ 225